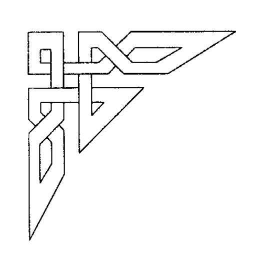
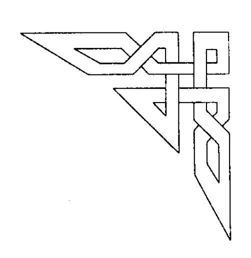
العدل أساس الملك

تأليف
أحمد محمود الحليسى

مكتبة الإيمان ـ المنصورة
ت / ٢٢٥٧٨٨٢

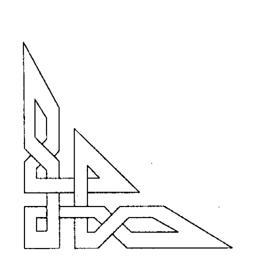
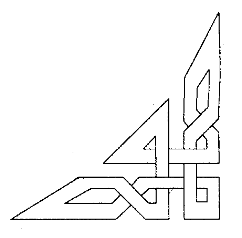
العدل أساس الملك

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت/ ٢٢٥٧٨٨٢/ ٠٥٠

مقدمة

عليه قامت السماوات والأرض، وهو اسم من أسماء الله عز وجل ومن صفاته، ولأهميته ورد ذكره فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات القرآنية، وهو سبب عمران الكون وما خلت أمة من الأمم من العدل إلا كان نذيرا بهلاكها وضياعها ، وما تمسكت به أمة من الأمم إلا كان سببا فى رقيها وفلاحها ولذلك يقول الرسول ﷺ : « إن الله لينصر الأمة الكافرة لو كانت عادلة ».

إن صحت هذه الرواية من أجل هذا وغيره نقدم للقارئ الكريم بعض النماذج التى أثرت الحياة بعدلها وضربت الأمثلة الرائعة التى يجب أن تكون لنا نماذج هدى ، ومثل نقتدى بها وإليك أيها القارئ هذه النماذج .

وبعد :

إن الحديث عن العدل كثر فيه الكلام ، وتبارت فيه العبارات ما بين مقل فيه ومبسط ، ونحن بجهد متواضع ، ومحاولة يسيرة نود أن نذكر ما ورد فى هذا الشأن ونقسمه إلى ما يلى:

(١)

مقتطفات من عدله ﷺ

أخرج البخارى عن عروة . . أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله فى غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد رضى الله عنهما يستشفعونه قال عروة فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال : « أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى » فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشاء قام رسول الله خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله [1] هذه صورة مشرقة من صاحب الشرع العظيم لو أخذ بها المسلمون لكانت علاجا ناجحا لحياتنا اليومية ولأصبحنا قدوة يضرب بها المثل ، فلو تخلقنا بهذا الخلق الكريم ألا وهو خلق العدل لو أقام الأب مع أبنائه لصلحت الأسرة والرئيس مع مرءوسيه ، والحاكم مع رعيته لصلح المجتمع كله .

فرسول الله ﷺ : يعلمنا كيف يكون العدل ؟ فهذه المرأة مِنْ علْيَة القوم وكَبِنِى قومها مكانة عالية بين الناس ، ولكن أوحى إليها شيطانها بأن تسرق فوقعت فريسة لشيطانها فسرقت وتناقلت الأخبار إلى الرسول ﷺ وعلم بما حدث وهنا وجد أهل هذه المرأة وزوجها حرجًا ومشقة وعنت شديد فماذا يصنعون أمام هذه الفضيحة ؟

---

(١) البداية والنهاية ٤ / ٣١٨ .

ففكر القوم وأمعنوا التفكير وقد هداهم تفكيرهم إلى أن يذهبوا إلى أسامة ابن زيد وهنا يثور تساؤل ولماذا أسامة بن زيد بالذات ؟ ولم يفكروا بالذهاب إلى أبى بكر الصديق أو عمرو بن الخطاب أو الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ أو غير هؤلاء من كبار الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والإجابة : عن هذا لأن أبوه كان حِبّ رسول الله ﷺ . وابنه بالتبنى قبل الإسلام .

وصاحبه وموضع سره وأحب الناس إليه بعد الإسلام . هذا عن أبيه وأما أمه فهى بركة الحبشية المكناة بأم أيمن . وقد كانت مملوكة لأمه آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ فربت رسول الله وحضنته بعد وفاتها فأحبها أعمق الحب وأصدقه وكثيرًا ما كان يقول : هى أمى بعد أمى وبقية أهل بيتى . وُلِدَ هذا الغلام المحظوظ السيد من هذين الأبوين الكريمين وقد فرح المسلمون بمولد أسامة بن زيد كما لم يفرحوا بمولد سواه ذلك لأن كل ما يفرح النبى ﷺ يفرحهم ، وكل ما يدخل السرور على قلبه يسرهم ، فأطلقوا على الغلام المحظوظ [الحْبُّ وابن الْحِبِّ] .

ولم يكن المسلمون مبالغين حين أطلقوا هذا اللقب على الصبى الصغير أسامة فقد أحبه الرسول ﷺ حبا تحسده عليه الدنيا كلها فقد كان أسامة مقارب فى السِّنِّ لسبطه الحسن بن فاطمة الزهراء رضى الله عنه .

وكان الحسن أبيض أزهر رائع الحسن شديد الشبه بجده ﷺ . وكان أسامة أسود البشرة أفطس الأنف شديد الشبه بأمه الحبشية لكن الرسول ﷺ ما كان يفرق بينهما فى الحب فكان يأخذ أسامة فيضعه على إحدى فخذيه ويأخذ الحسن فيضعه على فخذه الاخرى ثم يضمهم إلى صدره ويقول :

[اللهم إنى أحبهما فأحبهما .] . وقد بلغ من حب الرسول لأسامة أنه عثر ذات مرة بعتبه الباب فشجت جبهته وسال الدم من جرحه فأشار النبى ﷺ .

لعائشة ـ رضوان الله عليها ـ أن تزيل الدم عن جرحه فلم تطب نفسها لذلك . فقام النبى ﷺ . وجعل يمص شجعته أو يمسح الدم ، وهو يطيب خاطره بكلمات تفيض عذوبة .

وكما أحب الرسول ﷺ أسامة فى صغره فقد أحبه فى شبابه وكان أسامة رضى الله عنه وعن أبيه جديراً بهذا الحب والحنان من أجل هذا وغيره فكر هؤلاء القوم فى أسامة من أجل أن يتوسط عند رسول الله ﷺ من أجل أن يعفو عن هذه المرأة . وقد ذهب أسامة بحسن نيه . . وحبًا فى صنيع الخيرِ إلى رسول الله ﷺ . ولم يكن يعلم أو يدر فى خلده وتفكيره أن حديثه هذا وطلبه سيغضب الرسول ﷺ ولو علم بذلك ما تجرأ على الذهاب إليه وعندما سمع رسول الله ﷺ قوله غضب وتغير وجهه وتلون وكان يعرف ذلك فى وجهه إذا غضب وعلى الرغم من حبه لأسامة بن زيد غضب وقال :« أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟» وقد أذهلت المفاجئة أسامة وذهبت كلمة الاعتذار من بين شفتيه وأسقط فى يديه ولم يزد على أن قال : أستغفر لى يا رسول الله ، ولم يكتف الرسول ﷺ بذلك بل حذر أن يتكرر هذا الأمر من أحد أصحابه مرة أخرى أو بين أصحابه بعد وفاته، فأراد أن يضع دستورًا تسير عليه الأمة الإسلامية فى جميع أحوالها وشئون حياتها ، ويضع فنونًا لا يجيد المعلم عنها فى حياته فلما كان العشاء انتهى من صلاة العشاء وأصحابه من حوله قام خطيبًا فيهم قائلاً . أما بعد [فإنما أهلك الناس قبلكم أنه كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد] فالرسول ﷺ أمن أنه من أسباب هلاك الناس والأمم فى الماضى ألا يحدوا وبعد عن العدل حيث كان سلوكهم فيما بينهم إذا سرق الشريف صاحب المال والجاه والسلطان والحب تركوا إقامة الحد عليه لشرفه ونسبه وتجاوز عن انحرافه وفسوقه وأما إذا سرق فيهم الضعيف فى مال وحسبه وهو من عامة الناس أقاموا عليه الحد وطبقوا الشرع وتنادروا فيما بينهم فهل من إقامة حق الله؟

والرسول ﷺ - يحذر المسلمين من هذا الخلل الذى يأتى على الأمة من جذورها؛ ثم أراد أن يبين أن هذا الأمر لو تعلق بشخصه الكريم ما تراجع عن إقامة الحد فأقسم قائلاً : والذى نفسى بيده] وهذا يمين ما كان يقسم به الرسول ﷺ . إلا فى الأمر العظيم فيقول : والله الذى أنا مملوك له وتحت تصرفه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، ولماذا فاطمة ؟ لأنها أحب أبناء رسول الله إلى أبيها وأشبه الناس به حتى كانت تلقب بِأمٍّ أبيها وسيدة نساء الجنة ، وعلى الرغم من هذه المكانة العالية الرفيعة يقسم لو أنها ارتكبت هذه الجريمة لم يتورع عن قطع يدها وإقامة الحد عليها وهو بهذا يقطع الشبهة على كل من تسول له نفسه من ضعاف الإيمان ويسأل نفسه ويقول لو أن بنت محمد سرقت أو أحد من أهل بيتة أو أقربائه هل كان يقيم عليه الحد ؟ فجاء جواب الرسول ﷺ قاطعًا هذه الشبهة ولم تأخذه شفاعة الشافعين ولا توسل المتوسلين ولأنه لم يقبل الوساطة فى حد لله ولا فى حَقٍّ من حقوق الله فأمر رسول الله ﷺ . بتلك المرأة فقطعت يدها - وإنتصر العدل وتابت بعد ذلك هذه المرأة وحسنت توبتها وأصبحت عضوًا نافعًا بعد أن كانت عضوًا فاسدًا يعبث بمقدسات المجتمع ، ولأن إقامة الحد عليها فيه مصلحة تعود عليها لأنها لو تركت وشأنها لأصبحت معول هدم وسبب من أسباب الفساد فى المجتمع وتزوجت وأصبحت أم أسرة ولبنة من لبنات المجتمع الصالح فهذه السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ - وما أحوجنا اليوم أن نحيى هذه الصورة المشرقة لو أخذ بها المسلمون لكانت علاجًا ناجحا لحياتنا اليومية ولأصبحنا قدوة يضرب بها المثل . والعدل مطلوب من الحاكم بين رعيته والأب بين أبنائه والرئيس مع مرؤوسيه فما أحوجنا جميعا إلى هذا الخلق الكريم .

الذى جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعًا ثم لينشئ عالمًا ، ويقيم نظاما جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ومن ثم جاء بالمبادئ التى

تكفل تماسك الجماعة والجماعات جاء بالعدل الذى يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولا تبدل مجارات للصهر والنسب والغنى والفقر والقوة والضعف وإنما تمضى فى طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع وإلى جوار العدل والإحسان .

الوزن يشبه اللحاف إذا كنا فى الصيف فرشناه على الأرض ونمنا عليه . أما فى الشتاء فرشنا نصفه وتغطينا بالنصف الآخر .

(٢)

وهذه رائعة أخرى من روائعه ﷺ (١) فقد روى الطبرانى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه قالت : كان على رسول الله وسق من تمر لرجل من بنى سعيدة فأتاه يقتضيه فأمر رسول الله رجلا من الأنصار أن يقضيه فقضاه تمرا دون تمره فأبى الرجل أن يقبله فقال : أترد على رسول الله؟ قال : نعم ومن أحق بالعدل من رسول الله فاكتحلت عين رسول الله ﷺ بدموعه ثم قال : صدق ومن أحق بالعدل منى ؟ لا قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولا يتعتعه ، ثم قال :« يا خولة » عديه واقضيه فإنه ليس من غريم يخرج من غريمه راضيا إلا سلط عليه دواب الأرض ، ونون البحار، وليس من عبد يلوى غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه إثما فى كل يوم وليلة إثما (٢) .

إن رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل الأروع فى سعة الصدر والعدل وحين قال الأنصارى : أترد على رسول الله ؟ لم يقصد بهذا أن يستشير غضب رسول الله، ولكن يستعظم أن يرد عليه أحد . فقال الرجل: ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ . فنصف الرجل من رسول الله ، ثم فاضت عيناه بالدمع فقال قولته الكريمة الغالية التى إن وجدت وصارت بيننا تقيم أمما عالية القامة شامخة الرأس وأنها تقيم

---

(١) أخرجه الأربعة عن عائشة .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى ٤ / ٢٦ .

العدل بينها فتسعد بحياة الوجود كله فيقول ﷺ : «لا قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها» لذا جاء فى الحديث الذى يرويه أبو ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهديكم . يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم . يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١) .

(٣)

أخرج البخارى عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع، و أقبل على فضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت ، ثم أدركه الموت فأرسلنى فلحقت عمر ـ رضى الله عنه ـ فقلت : ما بال الناس ؟ فقال أمر الله ورجعوا وجلس رسول الله ﷺ فقال : «من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه » (أى ما عليه من

---

(١) يراجع صحيح الأحاديث القدسية : للعدوى ١٧٦ .

ثياب وسلاح) فقمت ، فقلت من يشهد لى؟ ثم جلست فقال : رسول الله ﷺ مثله، فقلت: من يشهد لى ؟ ثم جلست ، فقال رسول الله فقلت: من يشهد لى؟ . ثم جلست ثم قال رسول الله . فقمت ، فقال : مالك يا أبا قتادة ؟ فأخبرته ، فقال : رجل صدق سلبه عندى فأرضيه منى فقال أبو بكر رضى الله عنه لاها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه فقال النبى ﷺ : «صدق» فأعطاه فأعطانيه فابتعت به مخرافا (أى اشتريت به بستانًا من النخل فى بنى سلمة فإنه أول مال تأثلته) (أى جمعته فى الإسلام).

(٤)

وروى عن أبى حدرد الأسلمى رضى الله عنه أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال : يا محمد إن لى على هذا أربعة دراهم ، وقد غلبنى عليها ، فقال رسول الله ﷺ «أعطه حقه» قال : والذى نفسى بيده ما أقدر عليها، فقد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئًا فأرجع فأقضيه قال : «أعطه حقه»، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثا لم يراجع ، فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق ، وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببرده ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال من يشترى منى هذه البردة فبعها منه بأربعة دراهم ؟ فمرت عجوز فقالت : مالك يا صاحب رسول الله ﷺ فأخبرها ، فقالت : هادونك هذا البرد ببرد عليها طرحته عليه .

فرسول الله ﷺ يضرب لنا المثل مرة أخرى فى عدله فهذا رجل يطلب دينه والمدين عاجز عن سداد الدين وأقسم بأغلظ الأيمان بأنه ليس عنده ما يسد دينه والرسول ﷺ يصر على سداده لدينه حتى يخرج الرجل إلى السوق من أجل أن يسدد دينه وكل ذلك من أجل ترسيخ قيمة العدل بين الناس لاستيفاء حقوقهم فيعيش الجميع فى مجتمع يأمن الجميع على حقوقهم لذا روى عن :

أم سلمة رضى الله عنها قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث قد درست ليس لهما بينهما ، فقال النبى ﷺ « إنكم تختصمون إلى وإنما أقضى برأيى فيما لم ينزل على فيه وَحْى ، فمن قضيت له فيه بحجته أقتطع بها شيئًا من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى يوم القيامة معلقا فى عنقه فبكى الرجلان ، وقال كل واحد منهما : يا رسول الله حقى له ، فقال النبى :« أما إذا فعلتما ما فعلتما وتوخيتما الحق (أى أقصد الحق) واقتسما واستهما وليحلل كلا منكما صاحبه »[1]. فهذه صورة رائعة من صور العدل الذى أرسى قواعده الرسول ﷺ فهذان رجلان يختصمان فى حق لهما ولا يستطيع أى منهما أن يقدم دليلا على حقه وهذا أمر فى غاية الصعوبة فلما ذكرهما الرسول بأن من يأخذ شيئا ليس بحقه فإنه يأتى يوم القيامة معلقا فى عنقه ؛ فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما يا رسول الله حقى له . فقال النبى ﷺ :« أمَّا إذا فعلتما ما فعلتما ، فاذهبا وتوخيا ـ أى : اقصدا الحق ـ واقتسما واستهما وليحلل كل واحد منكما : صاحبه » وأراد كل واحد منهما أن يتنازل عن حقه ما لشىء إلا من أجل أنه يخاف على نفسه من يوم القيامة .

(٥)

روى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال الرجل : أحرج عليك إلا قضيتنى فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك أتدرى من تكلم ؟ فقال : إنى أطلب حقى ، فقال النبى ﷺ : « هلا مع صاحب الحق كنتم» ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك ، فقالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله فاقترض فقضى الأعرابى وأطعمه ، فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال : « أولئك خيار الناس لا قدس الله أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير

---

(١) يراجع كنز العمال ٣/ ١٨٣ .

متعتع » (أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه) والقرآن الكريم فى أكثر من آية يتحدث عن العدل لأهميته فيقول الحق تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]

إنه من الواضح أن القرآن جاء لينشئ أمة ، وينظم مجتمعا ، ثم لينشئ عالمًا ويقيم نظاما إنسانيا . فقد جاء فى أساسه دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ، ومن ثم جاء بالمبادئ التى تكفل تماسك الجماعة بالعدل الذى يكفل لكل فرد ، ولكل جماعة ، ولكل قوم قاعدة ثابتة موحدة للتعامل . لا تميل مع الهواء ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للمصاهرة والنسب ، والغنى والحسب والفقر والغنى والقوة والضعف إنما تمضى فى طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للكل على السواء ، وإلى جوار العدل الإحسان (١) .

عدله ﷺ مع أعدائه:

لقد ضرب ﷺ المثل الأعلى فى عدله مع أعدائه فأصبح مثلا يضرب به وهذه بعض النماذج :

١ ـ فى ذات يوم جاء رجل يسمى زيد بن سعنة قبل إسلامه يقتضى دينه من رسول الله فجذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له ثم قال : إنكم يا بنى عبد المطلب مطل فانتهره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشدد له فى القول والنبى ﷺ يبتسم فقال ﷺ : «أنا وهو كنا إلى غير ذلك أحوج منك يا عمر تأمرنى بحسن القضاء وتأمره بحسن الطلب لقد بقى من أجله ثلاث» ثم أمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين (درهما أو دينارا) لما روعته فكان ذلك سبب إسلام زيد رضى الله عنه (٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن ٤ / ٢١٩ .

(٢) الشفافى أحوال المصطفى لابن القيم ١/ ٨٢ .

وهذا رجل يهودى يقول : عرفت صفة رسول الله إلا صفة واحدة ألا وهى كلما اشتد الجفاء عليه لم يزده إلا حلما وعدلا فأخذت أتقرب إليه وأتودد إليه حتى اقترض منى وتحينت الفرصة وطلبت حقى قبل وفاء الدين بثلاثة أيام ، وأغلظت له فى الطلب وكان عمر يريد أن يبطش بى فروعنى ، فقال له رسول الله ﷺ كلمه حانية : « قم فاقضيه حقه وزده عشرين لما روعته» فلم أجد أعدل منه أحدًا .

٢ ـ جيء برجل إلى رسول الله ﷺ فقيل : يا رسول الله إن هذا أراد أن يقتلك فقال له : «ولو أردت ذلك لم تسلط على؟ » .

فهذا رجل يقدم عليه وهو يعزم على قتله فيمسك به فماذا كان جوابه ﷺ ؟ فيقول له: لن تراع لن يصيبك منى أذى ، وكان فى إمكانه أن يشير إلى أحد أصحابه فيفتك به فى لحظة ولكنه يؤثر الرحمة .. والرأفة والعدل .

٣ ـ ويقول صاحب الترغيب والترهيب الإمام المنذرى ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «ما من أمير على عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل» [١] .

٤ ـ ألم يقل رسول الله ﷺ : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرًا ، ونظرى عبرة» (رواه رزين) [٢] .

٥ ـ ذكر لنا ابن هشام فى سيرته أن الوليد بن المغيرة ، وعمير بن وهب جلسا فى حجر الكعبة وأخذا يتذكران قتلاهم فى بدر وما حدث لهم فقال عمير ابن وهب : والله لولا دين على وبنات أخاف ضياعهن لخرجت بسيفى هذا إلى يثرب

---

(١) الترغيب والترهيب ٣ / ٤٥٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٩ .

ولم أرجع إلا برأس محمد بن عبد الله . فقال له الوليد دينك دينى أقضيه عنك وبناتك بناتى فقال له عمير : اكتم عنى فشحذ سيفه وركب فرسه ويمم وجهه إلى مدينة رسول الله ﷺ فوصلها ليلا فأدركه الفاروق عمر بن الخطاب فلببه بحمالة سيفه وقال : ما جاء بك يا عدو الله قال : جئت فى أسير لى عندكم فأخذه إلى الرسول ﷺ فقال له الرسول: « ما جاء بك يا عمير ؟» قال : جئت فى أسير لى عندكم : فقال له : وماذا تصنع بهذا السيف ؟ قال : قبحه الله من سيوف وهل أغنت عنا يوم بدر شيئًا ؟ : فقال له الرسول ﷺ : «أصدق القول يا عمير ألم تقل أنت وصاحبك وأنتما جالسان فى حجر الكعبة لولا دين على وبنات لى أخاف ضياعهن لخرجت بسيفى هذا فلم أرجع إلا برأس محمد؟». فقال عمير : أشهد أنك رسول الله وأسلم عمير فتجاوز الرسول عنه وقال لأصحابه : فقهوا أخاكم فى الدين (١) .

وأصبح حال عمير وهو يقطع الصحراء الواسعة ويجتاز المفاوز يعلو نجادًا ويهبط أودية ،يحط رحاله في كل مرحلة وفى كل بقعة ينزل بها لم يكن يشغله ولا يفكر فى شىء سوى أن يرجع برأس محمد ﷺ ولم يشغل باله بشىء سوى هذا الهدف أما عن دينه فقد تعهد غيره بسداده وبناته فهن فى أمان إذا فليس فى حاجة أن يشغل باله فى شىء غير هدفه حتى يصبح مثلا يضرب به بين أقرانه من المشركين وعمير على هذا الحال دخل المدينة ليلاً يتسلل تحت أستار الظلام لكى يرتكب جريمته الآثمة الذى لم يرد الله لها أن تكتمل وكادت المؤامرة تنجح ولكن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينقض عليه كالصقر الذى ينقض على فريسته فلا تستطيع الانفلات من بين مخالبه فأدركه ولف حمالة سيفه الذى كان معه حول عنقه وخاطبه قائلاً : ما جاء بك يا عدو الله ؟ فأراد عمير أن يخرج من هذا المأزق ولعل الفرصة تكون مواتية له حيث يمكنه فى عقله أصحاب رسول الله ﷺ أن يتسلل إليه فى خفة وخفية ويحقق ما جاء من أجله [قال : جئت لأسير

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ١١٥ .

لى عندكم] قال هذا وهو يفكر فى كل ما مضى فأخذه عمر بن الخطاب إلى الرسول فقال له الرسول ﷺ: « ما جاء بك يا عمير» قال : جئت فى أسير لى عندكم . فقال الرسول : «وماذا تصنع بهذا السيف ؟» قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنى عنا يوم بدر شيئًا ؟] .

وهنا نتوقف . إن هذا الرجل عندما سئل عن سبب قدومه إلى المدينة من قبل الرسول ﷺ أخبره كاذبًا بأن سبب قدومه أن له أسيرًا عند المسلمين ويريد أن يدفع فديته ويعود به ، ومن قبل أخبر عمر بن الخطاب بهذا ، وفى كلا الحالين يكذب ويتقن الكذب أملاً فى أن تخيل هـذه الحيلـة على الرسول ، وعمـر ومن كان حاضرًا ، ولكن عاد الرسول ﷺ على عمير القول مرة ، ومرة ، وفى كل مرة يُصِرَّ عميرُ على الكذب ، وفى كل مرة يقول له الرسول : اصدق القول، وعمير مُصِر على قوله ، ولم يجد بدًا من أن يخبره بما حدث بينه وبين صاحبه فى حجر الكعبة وأسقط بين يديى عمر ، وقد شرح الله قلبه للإسلام ، وقال : أشهد أنك رسول الله ، وأسلم عمير وتجاوز الرسول عنه ، وقال لأصحابه «فقهوا أخاكم فى الدين » أليس كان رسول الله قادرًا على أن يشر بطرف أصبعه فيطاح برأسه فى لحظة واحدة ، أو يأمر أحد أصحابة فى اللحظة وهو الذى جاء من مكة وكل أمانيه بل وأقصى أمانيه أن يرجع برأس رسول الله ﷺ . ولكن رسول الله العدل والرحمة يتجاوز عنه بعدله ورحمته كل ذلك من أجل أن يطبع النفوس على العدل والرحمة والتسامح .

وأما الوليد بن المغيرة فمنذ اللحظة التى تم الاتفاق فيها على هذه الجريمة الأثمة أصبح يمنى نفسه فى يقظتها ونومها بأن يتحقق ما تم الانفاق عليه وزاد أمله وحلمه بعد خروج عمير من مكة إلى المدينة وبعد أيام من خروج عمير كان كل صباح ينتظر الوافدين إلى مكة ويسألهم عن أخبار عمير وأصبح كذلك يتلمس الأخبار وطال انتظاره وبعد أن طال انتظاره ومرت عليه الأيام ثقيلة رتيبة على نفسه اليوم الواحد كدهر من الزمن فوجئ وعلى غير موعد بدخول عمير عليه

فهب من جلسته مهرولا نحوه ولكن سرعان ما تراجع إلى الخلف عندما أحدق النظر إلى وجهه فقال له : يا عمير لقد جئت بوجه غير الذى خرجت به أخبرنى يا عمير ماذا حدث ؟ وأين رأس محمد ؟ وأخذ يورد عليه وابل من الأسئلة ، ولكن عمير وقف ثابت ثبات المؤمن قائلاً له : يا وليد أدرك الإسلام قبل فوات الأوان فعندما سمع الوليد هذه المقالة اهتزت فرائسه ولم تحمله قدماه وجلس مكانه ، وقال : يا عمير لقد جئت فرد عليه قائلا بل آمنت يا وليد لقد أردت أنت وأردت أنا ، ولكن الله أراد وقضى أمرًا كان مفعولا ولا رَدَّ لقضائه وإرادته .

فبسبب عدل الرسول ﷺ جعل الكافرا مسلما وأنجاه من العذاب فى الدنيا والآخرة فرضى اللّٰه عن عمير وصلى الله على رسول الله . وهذا مشهد آخر لا يقل روعه . . عن سابقه فمن المعلوم أن الرسول ﷺ كانت تمر عليه تقلبات الأيام من عسر ويسر وفرح وحزن وصحة ومرض والأيام دول مصداقا لقول الحق: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس﴾ [آل عمران : ١٤٠] . فقد أصابه عسر فقد قرض رجل من بنى ساعدة وَسَقًا من تمر لفترة من الزمن ، وجاء وقت السداد فأمر رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار أن يعطى الرجل حقه ويقضيه دينه الذى كان له ولكن الأنصارى أعطاه تمرًا دون تمره فى الجودة والحسن ولم يقصد الأنصارى الوقيعة بين الرجل والرسول ﷺ بل أعطاه تمر مما تيسر له وما كان متاحًا له ولكن صاحب الدين رفض أن يأخذ هذا التمر ورده وليس بخلا منه أو شحًا تسرب إلى نفسه لأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أرق من هذا وأفضل خلقا ولكن الرجل أراد أن يستوفى حقه فقط لا غير . فرد التمر ورفض أن يأخذه ويقبله فقال الأنصارى أترد على رسول الله ﷺ ؟ ولم يقصد الأنصارى بهذا أن يستثير غضب رسول الله على هذا الرجل ولكن استعظم أن يرد أحد شيئًا كان هذا الشيء وأيًا كانت قيمته لأنه رسول ذو مكانة عالية ودرجة رفيعة وأعظم من أن يرد عليه أحد ، ولكن كان رد صاحب الدين حاسمًا وقاطعا وعادلاً [قال : نعم ومن أحق بالعدل من رسول الله ؟] وهنا وضع رسول الله الأمور فى

نصابها حين صدق قوله . فقال : صدق ومن أحق بالعدل منى] وقد تجلَّى هذا المشهد الإيمانى عندما اكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه من فرط إحساسه بحرارة صدق صاحب الحق وشدة المسئولية عليه أمام أمته وأمام الله عز وجل ، فقال هذه الكلمة الغالية التى إن وجدت وصارت بيننا تقيم أمما عالية القامة شامخة الرأس .

لا قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها :

فى عالم الغابة نجد القوى هو صاحب الحق ، وأما الضعيف لا قيمة له ولا وزن ، بل يكون مما يهضم حقه وفى عالم البشر ربما تكون الصورة مكررة إذا لم يكن هناك خُلُق العدل فيضع القوى على الضعيف فيرد البشر إلى سلوك الحيوان فى الغابة ، ومن هنا جاء إنذار الرسول ﷺ . قال : لا يبارك الله فى أمة لا تقيم العدل بين أبنائها لأن الضعيف لا يكون مطمئنًا على حقه وماله وعرضه ونفسه ما لم يكن العدل مطبقا بين الناس ، ثم أمر خولة بنت قيس زوج حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن تقوم فتعطى الرجل حقه ودينه وتعطيه حتى يرضى لأنه مامن غريم يخرج من عند غريمة راضيا إلا كان عليه إثم فما أحوجنا نحن أبناء الإسلام إلى أن نتخلق بهذا الخلق الكريم ، وما أحوجنا أن نسير على طريق ومنهج الرسول ﷺ.

الشرح :

من الحكمة الإلهية أن جعل حياة الرسول ﷺ تشتمل على دروس عظيمة نافعة للإنسانية عامة وللمسلمين خاصة وقيض الله له أصحابًا أجلاء أمناء يقولون لنا كل ما كان يصدر عن النبى ﷺ من أقوال وأفعال بكل دقة وبكل أمانة حتى تكون لنا زادًا يوصلنا إلى برِّ الأمان ، وبلسم شافٍ بل وترياقا لإزالة أمراض النفوس والقلوب وما أحوج المسلم إلى هذا الدواء اليوم وخاصة فى تعامله مع إخوانه المسلمين وغيرهم حتى يكون قدوة صالحة فى كل زمان ومكان .

فذات يوم دفعت الحاجة رسول الله ﷺ . أن يقترض من أعرابى وجاء وقت السداد وحضر الرجل وطلب دينه واشتد على الرسول ﷺ فى الطلب ومن المعلوم أن طبائع الأعراب فيها غلظة وجفوة وقسوة فى التعبير وكان الرسول ﷺ يناله من هذا الشيء كثير فيحمل بالصبر والحلم ، والأمثلة على هذا النحو كثيرة فذات يوم دخل عليه أعرابى وقال : أعطنى من هذا المال فإنه ليس مالك ولا مال أبيك فلم يزد الرسول ﷺ على أن قال له : صدقت إنه مال الله . وهذا آخر جذبه من ثوبه . فلم يزد على أن يبتسم : ويقول : رحم الله أخى موسى لقد أوذي بأكثر من ذلك فصبر .

ولما اشتد على الرسول بطريقة فيها غلظة وجفوة وقسوة أمام الحاضرين حتى قال الرجل : أحلف عليك إلا قضيتنى ، وهنا تدخل أصحابه وزجروه زجرًا عنيفًا وقالوا له : ويلك أتدرى من تكلم أراد أن يذكروه بجرم ما ارتكب بأن رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ وهذا أمر منهى عنه بنص قول الحق : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ [الحجرات : ٢] .

فقال الرجل: إنى أطلب حقى وهنا نطق النبى ﷺ وقال : « هلا مع صاحب الحق كنتم . كلمة نزلت على قلوب الحاضرين بردًا وسلاما وفيها من المعانى ما لا يعصى بأن صوت صاحب الحق عاليا ، وإرشادًا للمسلمين فى كل زمان ومكان أن يكونوا مع صاحب الحق ويقفوا بجواره ، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس زوجة حمزة بن عبد المطلب . قائلا لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا أى أعطينا نسدد به هذا الدين الذى عَلَىَّ لهذا الرجل ، وعندما يأتينا تمر نرد التمر إليك فسارعت هذه السيدة الجليلة وقالت : نعم فداك أبى وأمى أى أفديك بنفسى وأفديك بأبى وأمى وهى كلمة كانت لا تقولها العرب إلا لمن تحبه وتعزه وأخذ الأعرابى حقه وأطعمه الرسول ﷺ وقال : أوفيت قال : أوفى الله لك] فالرسول ﷺ لم يعط الرجل حقه فقط ولكن أطعمه وأرضاه ثم سأله هل أوفيت

لك ؟ قال : نعم. وهنا نسأل لو أن عليك دين لآخر وجاء يطلب حقه وليس معك ما تسد به الدين فإن المرارة والإحراج والحيرة تكون أشد وتنظر إلى الإقراض من أخر من أجل أن تسدد الدين الذى عليك وتطعمه وتتود إليه قائلاً هل أوفيت لك حقك ؟ .

كل هذا وغيره صنعه الرسول ﷺ . وامتداح الرجل ومن على شاكلته ويضع على صدرة إكليلا من الورد ونيشانا يلازمه طوال حياته وبعد وفاته فيقول [أولئك خيار الناس لا قدس الله أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع] فالرسول ﷺ يبين أن أى أمة لا يتمكن الضعيف من أخذ حقه فيها من غير أذى أو إزعاج فإنها أمة منزوعة البركة قليلة الخير وأى أمة تستحق أن تعيش بين الأمم شامخة الرأس وفيها الضعيف يستطيع أن يأخذ حقه ويعيش عيشة كريمة .

إن الرسول ﷺ . قال : إن العدل ليس قاصرًا على أصحابه خاصة أو على المسلمين عامة ، ولكن مظلة العدل عامة تشمل بنى الإنسان عامة وتظلله بظلاله الوارفة لا يفرق الرسول ﷺ بين إنسان وآخر نظرًا لدينه أو جنسه أو لونه فهو نصر صاحب الحق ولو على غير دينه ولو كان من أشد أعدائه وينصفه ويأخذ له حقه من خصمه ولو كان من أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه فهذا صحابى جليل يسمى : أبو حدرد الأسلمى رضى الله عنه . تعرضت له الدنيا بسهامها فأصابته فاقة وحاجة وهذا حال الدنيا وضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يجد أحدًا يقترض منه سوى هذا الرجل اليهودى ولأن اليهود كانوا يسكنون المدينة وهم جيران المسلمين فاقترض منه أبو حدرد أربعة دراهم لا غير ، وجاء وقت السداد ، ولم يوف هذا الصحابى الجليل بما عليه من دين . ليس طمعا فى حق صاحب الدين ، ولكن لضيق ذات اليد ولم يأته الفرج الذى يفك كربه بعد ، ولم يجد اليهودى حرجًا فى أن يذهب إلى صاحب الشرع العظيم ﷺ فقال : يا محمد إن لى على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها فماذا كان جوابه ؟وهو معلم الإنسانية ومربى البشرية اتجه إلى هذا الصحابى فى حزم وعزم قائلا له أعطيه حقه

فقال : والذى بعثك بالحق نبيًا ما أقدر عليها . أى والله الذى لا إله غيره وبعثك نبيًا ومبشرًا ونذيرًا لا أملك شيئا حتى أوفى بما له على من دين وهو صادق فيما أقسم عليه ، والرسول ﷺ يعلم صدق الصحابى الجليل ولكنه العدل الذى لم يفرق بين مسلم ويهودى [فأعاد عليه الرسول قوله ثلاث مرات وكان الرسول إذا قال ثلاث لم يرد] ولم يجد أبو حدرد بُدٌّ أمام مطالبة صاحب الدين بدينه وعزم الرسول عليه من أجل سداد دينه فخرج إلى السوق وكان على رأسه عصابه وعليه بردة يستر بها جسده فنزع العمامة من على رأسه فستر بها نفسه ، وقال : مَنْ يشترى منى هذه البردة فباعها بأربعة دراهم فمرت به امرأة عجوز أحناها الدهر ، وقد شهدت هذا الموقف ورمقته بعينها فقالت : ما بك يا صاحب رسول الله فأخبرها بأمره ، وكان معها برد فى يدها فأعطته إياه وطرحته عليه . وعاد أبو حدرد إلى رسول الله واليهودى واقف ينتظر عودة حقه فأعطاه الأربعة دراهم وسدد ما عليه من دين ؟

كل ذلك من أجل ترسيخ قيمة العدل بين الناس فيعيش الجميع فى أمان وسلام ، فهل آن لنا أن نقتدى برسول الله ﷺ . ونتأسى به ونسير على سنته ومنهجه كما سار على سنته ومنهجه الصحابة . . رِضوان الله عليهم فسعدو فى الدنيا وكتب لهم الفوز والفلاح فى الآخرة . إن طوق النجاة لنا فى جميع أحوالنا السير على سلوكه ﷺ .

عدلـه مـع أحبابـه :

يروى أن رسول الله ﷺ وهو يسوى صفوف الجيش فى غزوة بدر فرأى سواد بن غزية . . خارجا عن الصف فغمزه بقضيب صغير من الخشب كان فى يده قائلا : استو يا سواد فيقول سواد يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى من نفسك ، فكشف رسول الله عن بطنه وقال : استقد . (خذ حقك فيعتنقه سواد ويقبل بطنه الشريف فقال : ما حملك على هذا يا

سواد ؟ فيقول : يا رسول الله أردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعى له رسول الله بخير . فهذا عدل مطلق لم ترى الإنسانية له مثيلا .

إنه من الواضح أن القرآن جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعا ويقيم نظاما جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ومن ثم جاء بالمبادئ التى تكفل تماسك الجماعة والجماعات جاء بالعدل الذى يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالود والبغض لا تتبدل مجريات الأمور بالصهر والنسب والغنى والفقر والقوة والضعف إنما تمضى فى طريق تكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع ألا وهو العدل والإحسان .

عـدل أبـى بكـر

من الواضح أن أبا بكر خير كفيل بالنصر والنجاح فقد كان فى حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين فأخرج البيهقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قام يوم جمعة فقال : إذا كان بالغداة فاحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن فقالت امرأة لزوجها : خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملا فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال : ما أدخلك علينا ؟ ثم أخذ الخطام فضربه فلما فرغ أبو بكر من قسمة الإبل دعا الرجل فأعطاه الخطام قال : استقد فقال عمر والله لا يستقد لا تجعلها سنة ، قال أبو بكر : فمن لى من الله يوم القيامة فقال عمر : أرضه ، فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها قطيفة . أى أعطاه كساء له خمل وخمسة دنانير فأى عدل هذا يضرب رجل بخطام البعير لأنه دخل بدون إذن وخالف الأمر ثم بعد ذلك يطلب منه أن يضربه مثل ما ضربه هو لماذا ؟ لأنه يخاف عقاب الله يوم القيامة ، ومن هــو ؟ إنه الصديـق الذى قال عنه الحق تعالى : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ويقول الرسول الكريم : لو وزن إيمان الأمة فى كفة وإيمان أبى بكر فى كفة لرجح إيمان أبى بكر وإنا لنقترب من مشهد آخر من المشاهد الكثيرة التى تدل على روعة عدله وقوة إيمانه ، وكانت هذه الحادثة فى أول عهده ذلك أن السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، والعباس عم الرسول ﷺ ذهبا إليه يسألانه حقهما فى قطعة أرض صغيرة كان الرسول ﷺ قد أصابها فى بعض الفيء وكان عليه السلام يعطى السيدة فاطمة وبعض أهلها جزءا من نتاجها ثم يقسم الباقى بين فقراء أصحابه والآن وبعد وفاته عليه السلام. ذهب فاطمة رضى الله عنها إلى خليفة الرسول ﷺ تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها

ميراث أبيها عليه السلام قال أبو بكر لها وللعباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » إنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته فإنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ . فإن أبا بكر يعلم أن أولى الناس بالرعاية فى الحق هى بنت رسول الله ويعلم كم كان الرسول يحبها ويؤثرها ويعلم مدى حاجتها وزوجها وأولادها إلى هذه القطعة الصغيرة من الأرض وأبو بكر يؤثر أن يركب الصعب فى غيظه على أن يقول لابنة الرسول لا ومع هذا فقد قال لها : لقد قال الرسول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ولم تكد السيدة فاطمة رضى الله عنها تسمع جواب أبى بكر عن مسألتها حتى اكتسى وجهها بالأسى والألم والصديق يعلم أنها أسرع الناس لطاعة رسول الله ﷺ وأنها لا تخالف أبدا عن أمره ولكن قد يخامرها الشك فى أن الرسول قد قال الحديث وشرع هذا الحكم ومن ثم أرسل إلى عمر وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وسألهم أمامها ننشدكم بالذى تقوم السماء والأرض بأمره ألم تعلموا أن رسول الله قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » وأدلت فاطمة بحجة جديدة فقالت للخليفة : إنك تعلم أن الرسول قد وهبها لى فى حياته فهى لى بحق الهبة . . لا بحق الإرث فقال أبو بكر : أجل أعلم ولكنى رأيته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم . وإذا فقد أراد أن يكون فيها حق دائم للفقراء . قالت فاطمة . دعها فى أيدينا ونجرى فيها على ما كانت تجرى وهى فى يد رسول الله قال رضى الله عنه لست أرى ذلك فإنى أولى المؤمنين من بعد رسولهم وأنا أحق بذلك منكما أضعها فى الموضع الذى كان النبى ﷺ يضعها فيها . فى هذه الواقعة التى واجهت الصديق فى بداية حكمه اجتاز إيمانه بالحق إيمانا لا يدرك رهبته ومشقته أحد سوى أبى بكر ولقد أصاب فى هذا الامتحان ظفرا عظيما . ومن عدله أنه عندما تولى خلافة المسلمين كان لا يأخذ من بيت المال ما يقتنات به هو وأسرته . ومن شاء أن يرى جلال الحكم وعظمة الحاكم فلينظر إلى أبى بكر غداة

استخلافه إذ خرج من داره حاملا على كتفه لفافة كبيرة من الثياب ، وفى الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فيسألانه إلى أين يا خليفة رسول الله؟ فيجيبهما إلى السوق يا عمر . وماذا تصنع بالسوق وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال أبو بكر : فمن أين أطعم عيالى ؟ . فلم يدخل منصب الخلافة على النفس الكبيرة أى زهو ولم يحرك لها رغبة أية رغبة فى تغير أسلوب الحياة ، قال له عمر: انطلق معنا نعرض لك شيئًا من بيت مال المسلمين وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نودى أصحاب الرسول وعرض عليهم عمر رأيه فى أن يعرضوا ، له كفافا . . . . بعض شاة كل يوم ومائة دينار وخمسون فى العام ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة فى اليوم وثلاثمائة دينار فى العام وعاش أبو بكر بهذا هو وأسرته الكبيرة حتى فتح المسلمين أبواب الرزق والرغد وبدأت خيرات الشام والعراق تفد إلى المدينة ولم يكن الصديق يلتزم القناعة لمجرد الزهد بل كانت قناعته جزءًا من فلسفته فهو يقدس اللقمة الحلال ويحاذر أن يدخل جوفه كسرة خبز فيها شبهة ويرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسع للإسراف . كانت بساطته أهم عناصر عظمته .

وذات يوم يقرع باب إحدى تلك الدور وتسارع إلى الباب فتاة صغيرة لا تكاد تفتحه حتى تصيح إنه حالب الشاة . . يا أماه وتقبل الأم فإذا بها وجها لوجه أمام الخليفة العظيم فتقول لابنتها فى حياء : ويحك ألا تقولين خليفة رسول الله ؟ ويطرق أبو بكر رأسه ويهمهم مع نفسه بكلمات خافتة لعله كان يقول : دعيها فقد وصفتنى بأحب أعمالى إلى الله وتقدم حالب الشاة ليؤدى الواجب الذى فرضه على نفسه .

أجل حالب الشياه للعجائز والعاجن بيده خبز الأيتام ببساطة ورحمة كما كان الغلام الذى لا تفل منه قوة ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه ما يأتى . لم يلبث حين عادت بلاد العرب إلى دين الله أن ترك لكل منها من الاستقلال ما

ترك لها رسول الله من قبل فلم يطلب إليها إلا الزكاة. . التى كانت تؤديها أيام النبى ﷺ وكانت الزكاة ينفق جانب عظيم منها فى شئون هذه البلاد وعلى فقرائها بإشراف عماله الذين ولاهم أمورها والذين كانوا على مثاله عدلا ونصفة بذلك اطمأن العرب جميعًا إلى عيشهم وزوال كل خوف من انتقاصهم ، ولم يكن أبو بكر يستبقى لنفسه من الزكاة أو من أخماس الفىء . إلا ما فرضه المسلمون له ، ثم ينفق أكثرها فى تجهيز الجيوش للجهاد ويوزع ما بقى على الفقراء وأبناء السبيل، وكل من له حق فى مال المسلمين وكان بيت المال فى دار أبى بكر بالسنح فلما انتقل إلى المدينة نقله إلى داره بها ولم يقف الأمر على الزكاة وأخماس الفىء فقد فتح أثناء خلافته منجم للذهب فى بنى سليم على مقربة من المدينة وهو عرق الذهب الذى يستمر فى عصرنا الحاضر وكان يسوى فى القسمة بين السابقين الأولين والمتأخرين ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . سئل فى ذلك، فقيل له: إلا تقدم أهل السبق على قدر منازلهم فقال : إنما أسلموا ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك فى الآخرة ، وإنما هذه الدنيا إلا دار بلاغ .

عدل الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إن العدل هو ميزان الحياة ودستور الله فى خلقة وهو صفة من صفات اللَّه عزَّ وجَلَّ . ومَّن ضُرب بهم المثل فى العدل هو الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهذه بعض النماذج الذى يعتبر كل نموذج منها دُرَّة ناصعة فى جبين البشرية : فقد روى عن الشعبى قال : كان بين عمر وبين أبى بن كعب رضى الله عنه خصومة فقال عمر فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلاً فجعل زيد بن ثابت رضى الله عنه فأتياه فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤت الحكم ، فلما دخلا عليه وسع ، له زيد عن صدر فراشة فقال : ها هنا يا أمير المؤمنين فقال له عمر : هذا أول جور جُرْتَ فى حكمك ، ولكن اجلس مع خصمى فجلسنا بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لأبى اعف أمير المؤمنين من اليمين ، وما كنت لأسألها لأحد غيره ، فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء (١) فهذا الرجل يطلب من قاضيه أن يسوى بين خصمه وبينه ويرفض أن يميزه عن خصمه حتى ولو كان فى المجلس إنها آية من آيات العدالة وعلامة بارزة من علامات الإيمان .

فقال روى عبد الرزاق عن زيد بن أسلم قال : كان للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما دارًا إلى جانب مسجد المدينة فقـال له عمر رضى الله عنه : بعينها فأبى فأراد عمر أن يزيدها فى المسجد فأبى العباس أن يبيعها إياه فقال عمر : فهبها لى فأبى فقال : فوسعها أنت فى المسجد فأبى العباس فقال عمر : لابد لك من إحداهن فأبى عليه فقال : خذ بينى وبينك رجلا فأخذ أبى بن كعب رضى الله عنه فاختصما إليه فقال أبى لعمر ما أن تخرجه من دارك حتى ترضيه ، فقال له عمر : أرأيت قضاءك هذا فى كتاب الله وجدته أم سنة من رسول الله ﷺ

(١) يراجع البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٦١ وحياة الصحابة : الكندهلوى ٢/ ٨٦ .

فقال أبى بل سنة من رسول الله فقال : عمر وما ذاك ؟ فقال أبى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ لما بنى بيت المقدس جعل كلما بنى حائطا أصبح منهدمًا ، فأوحى الله إليه ألا تبنى فى حق رجل حتى ترضيه فتركه عمر فوسعها العباس رضى الله عنه بعد ذلك فى المسجد (١) فالفاروق عمر رضى الله عنه كان يمكنه أن يأخذ هذه الدار من العباس قسرًا ولم يعبه أحدا فى هذا لأنها تعتبر من المنافع العامة ولكن العدالة تأبى عليه ذلك لأنه لم يأخذها من أجل أن يسكن هو فيها أو أحد من أبنائه أو سيحصل على مكسب من ورائها بل هى منفعة عامة يعود نفعها على المسلمين ولم يشأ أن يأخذها بدون رضاء صاحبها إنه العدل إن يخالط الإنسان يجعله ملاكًا يسير على الأرض . وفى أثر آخر حينما احتكما إلى أبى بن كعب رضى الله عنه فقال : أوحى الله إلى سليمان بن داود أن يبنى بيت المقدس وكانت أرضا لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال الذى أعطيتنى خيرا أم الذى أخذته منى قال بل الذى أخذت منك قال فإنى لا أجيز ثم اشتراها منه بشىء أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاث فاشترط عليه سليمان أن أبتاعها (أى أشتريها) منك على حكمك فلا تسألنى أيهما خير قال : فاشتراها منه بحكمه فاحتكم اثنى عشر ألف قنطار ذهبًا فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه (أى أن نبى الله سليمان استكثر هذا الثمن على هذه الدار) فأوحى الله إليه إن كنت تعطيه من شىء هو لك فأنت أعلم به وإن كنت تعطيه من رزقنا فأعطه حتى يرضى ففعل .

ويروى لنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : شرب أخى عبد الرحمن وشرب معه أبو سروعة عتبة بن الحارث وهما بمصر فى خلافة عمر رضى الله عنه فسكرا فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه قال عبد الله : فذكر لى أخى أنه قد أخبر الأمير بذلك فقلت : لا تحلق اليوم رؤوس الناس ادخل الدار أحلقك

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣١٤ .

وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد فدخل الدار قال عبد الله : فحلقت أخى بيدى ثم جلدهم عمرو فسمع بذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو أن ابعث إلى بعبد الرحمن على قتب فلما قدم على عمر رضى الله عنه جلده وعاقبه لمكانه منه ثم أرسله فلبث شهرًا صحيحًا ثم أصابه قدره فمات فيحسب عامة الناس إنما مات من جلد عمر ولم يمت من جلد عمرو والهدف من هذا ليست هذه قسوة من عمر على فلذة كبده أو عملية مظهرية أو استعراضية أمام رعيته من أجل أن يشاع فيهم أنه عادل ولكن كان غرضه من هذا إنه خشى أن يكون الوالى تهاون فى عقابه لمكانته من عمر ولكن عمرو بن العاص أذكى من أن يقع فى هذا من حيث ورعه وتقواه، وثانيها : لعله أن الفاروق عمر لم ولن يغض الطرف عن هذا ولو أن عمرو تصرف أو نظر فى واقع الأمر بنظرة حانية مفطورة على الحب والحنان لغض الطرف عن هذا (أى يسكت) ولكن نزعة أبوة العدل الذى جعلته لا يفرق بين رعايا أمته ومواطن دولته وأبناء أسرته بل أصبح مع أسرته يحرم عليهم بعض الأمور المباحة لغيرهم .

وهذا مثال على ذلك ما روى عن عبد الله بن عمر قال : اشتريت إبلا وسقتها إلى الحمى فلما سمنت قدمت بها فدخل عمر السوق فرأى إبلا سمانا فقال : لمن هذه ؟ فقيل : لعبد الله بن عمر فقال عمر : يا عبد الله بخٍ بخٍ (كلمة تقال للتعجب) ابن أمير المؤمنين فجئته أسعى فقلت : ما لك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ما هذه الإبل ؟ قلت : إبل إنضاء كانت هزيلة واشتريتها وبعثت بها إلى الحمى (أى إلى المرعى) ابتغى ما يبتغى المسلمون فقال عمر : ارعو إبل ابن أمير المؤمنين اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين يا عبد الله هذا رأس مالك ، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين .

لقد بلغ عمر المسلم من صفاء النفس وشفافية الوجدان مبلغا يكاد يكون خيالا لا تتصوره عقول الخلق مهما سما تفكيرهم وصفت أنفسهم إن لم يكونوا فى مستوى الشوامخ من أمثال عمر فى عدله ونزاهته وإيمانه ؛ وقد بلغ العدل من

نفس عمر مبلغا لا مثيل له ، ولا يصل إليه إلا من ملك زمام نفسه فأصبح يأمرها لا تأمره ، وهذا مثال يحار الإنسان أمامه فقد كلف عمر رضى الله عنه زوجه أن تبيع لنساء المؤمنين مسكا ورد إلى بيت المال ليضع المال فى خدمة الرعية ومع ما فى هذا العمل من تواضع يربى عمر عليه زوجه ومع ما فى هذا من تطوع إلا أن عمر يظل الحاكم اليقظ المؤمن الحريص على آخرته دون دنياه ؛ كان عمر يدفع إلى امرأته طيبًا من طيب المسلمين فتبيعه امرأته فباعت المرأة فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكثره بأسنانها فعلق بإصبعها شيء منه فتمسح بإصبعيها على خمارها فدخل عمر فقال : ما هذا الريح ؟ فأخبرته بالذى كان . قال : طيب المسلمين تأخذينه أنت فتتطيبين به فانتـزع الخمار من رأسها وأخذ جزءًا من الماء فجعل يصب الماء على الخمار ثم يدلكه فى التراب ثم يشمه ففعل ذلك ما شاء الله حتى ذهب ريحه فجعلت بعد ذلك إذا علق بإصبعها شيء مسحت بها التراب .

وفى ذات يوم قدم عليه مسك وعنبر من البحرين فقال : والله لودت أن آخذ (أى أجد) امرأة تحسن الوزن تزن لى هذا العنبر والطيب حتى أفرقه بين المسلمين فقالت ، له امرأته عاتكة : أنا جيدة الوزن فهلم إلى أزن لك قال : لا . قالت ولم ؟ قال : أخشى أن تأخذى به هكذا فتجعليه هكذا وأدخل إصبعيه فى صدغه وتمسحين به عنقك فأصيب فضلا عن المسلمين إن كل موقف للفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعد سمه بارزة وقمة عالية فى العدل وفخرا للإنسانية والبشرية أن يكون منها رجل كعمر فكل ما يخشاه أن تصاب أصابع زوجته برائحة المسك الذى تبيعه فيكون قد تميز عن غيره من المسلمين فمن أى طراز كان هذا الفاروق .

لقد وصل عدله وسعة صدره أن يفتح قلبه حتى لغير القادة من أصحاب النفوذ والسادة من قريش إنه يستمع إلى سلمان الفارسى الذى وفد على ديار العرب غريبا مشردا فأعزه الله بالإسلام دون أن يجد حرجا فى مناقشته أو ضيقا مما يوجه إليه .

جاء عمر ببرد من اليمن (جمع برد وهى عباءة تلبس) ففرقها على الناس بردا بردا ثم صعد على المنبر يخطب وعليه حلية منها ما يساوى بردين فقال : اسمعوا ـ رحمكم الله ـ فقام إليه سلمان فقال : والله لا نسمع والله لا نسمع والله لا نسمع ، فقال : ولم يا أبا عبد الله ؟ فقال : يا عمر تفضلت علينا بالدنيا فرقت علينا بردا بردا وخرجت تخطب فى حلة منها فقال : أين عبد الله بن عمر؟ فقال : ها أنا ذا يا أمير المؤمنين قال : لمن هذين البردين اللذين على ؟ قال: لى فقال : عجلت على يا أبا عبد الله إنى كنت قد غسلت ثوبى الخلق (القديم) فاستعرت ثوب عبد الله قال سلمان : أما الآن فقل نسمع ونطيع . ولا تعليق على هذا لأنه غنى عن التعليق ولقد امتد عدله إلى العبيد الذين كانوا قبل الإسلام لا قيمة لهم ولا وزن فقد أخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن عساكر ، والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاءت جارية إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت : إن سيدى اتهمنى فأقعدنى على النار حتى احترق فرجى فقال لها عمر : هل رأى ذلك عليك ؟ قالت : لا قال : فهل اعترفت له بشىء ؟ قالت: لا فقال عُمر على به فلما رأى عمر الرجل قال : أتعذب بعذاب الله ؟ قال: يا أمير المؤمنين اتهمتها فى نفسها قال : أريت ذلك عليها ؟ قال الرجل : لا. قال : فاعترفت لك به ؟ قال : لا . قال : والذى نفسى بيده لو لم أسمع رسول الله ﷺ يقول : «لايقاد مملوك من مالكه ولا ولد من ولده» لاقتدها منك وضربه مائة صوت ، وقال للجارية : اذهبى فأنت حرة لوجهه تعالى وأنت مولاه لله ورسوله أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول من حرق بالنار أو مثل به فهو حر وهو مولى لله ورسوله . فقد أنصف الجارية وعاقب سيدها حتى يكون عبرة لغيره وما هذا لأنه جعل العدل سبيله فى كل موطن من مواطن حياته .

وهذا نموذج آخر لا يقل روعة عن سابقه فقد روى عن سويد بن غفلة رضى الله عنه قال : لما قدم عمر الشام قام إليه رجل من أهل الكتاب وقال : يا أمير المومنين إن رجلا من المؤمنين صنع بى ما ترى قال ذلك وهو مشجوج (مضروب وسال الدم منه) فغضب عمر رضى الله عنه غضبا شديدًا ثم قال لصهيب رضى الله عنه : انطلق وانظر من صاحبه (أى من فعل به هذا) فأتنى به فانطلق فإذا عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه فقال : إن أمير المؤمنين قد غضب عليك غضبًا شديدًا فأتى معاذ بن جبل فليكلمه فإنى أخاف أن يعجل إليك فلما قضى عمر الصلاة قال : أين صهيب أجئت بالرجل ؟ قال : نعم ، وقد كان عوف أتى معاذ فأخبره بقصته فقام معاذ فقال يا أمير المؤمنين إنه عوف بن مالك فاسمع منه ولا تعجل إليه فقال : مالك ولهذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فتحس بها ليسرع بها فلم يسرع بها فدفعها فسرعت فغشيها أو أكب عليها فقال : ائتنى بالمرأة فلتصدق ما قلت فأتاها عوف فقال له أبوها وزوجها ما زالت إلى صاحبتنا فقد فضحتنا فقال : والله لا أذهبنا معه فقال أبوها وزوجها: نحن نذهب فنبلغ عنك فأتى عمر فأخبراه بمثل قول عوف فأمر عمر باليهودى فصلب . وقال : ما على هذا صالحناكم ثم قال : أيها الناس اتقوا الله فى ذمه محمد فمن فعل هذا فلا ذمة له » قال سويـد : فذلك اليهودى أول مصلوب رأيته فى الإسلام ولم تكن هذه الحادثة هى الواحدة من غدر اليهود وعدل عمر .

فقد روى عن أبى بكر الليثى رضى الله عنه وكان ممن يخدم النبى ﷺ وهو غلام فلما احتلم جاء إلى النبى فقال : يا رسول الله إنى كنت أدخل على أهلك وقد بلغت مبلغ الرجال فقال النبى : اللهم صدق قوله ولقيه الظفر فلما كان فى ولاية عمر وجد يهودى قتيلا فأعظم ذلك عمر وصعد على المنبر وقال أفيما ولانى

الله واستخلفنى يفتك بالرجال اذكر الله رجلا كان عنده علم إلا أعلمنى فقام إليه أبى بكر هذا فقال : أنا به أعلم فقال عمر : الله أكبر يؤت بدمه فهات المخرج فقال : بلى خرج فلان وسماه باسمه غازيا فى سبيل الله ووكلنى بأهله فجئت فوجدت هذا اليهودى فى منزله وهو يقول :

وأشعث غرة الإسلام منى ... خلوت بعرسه لليل التمام

أبيت علـى ترائبها ويمسى ... على جـرد الأعنة الحزام

كنا مجـاميع الزبالات منها ... فئم ينهضون إلـى فئم

فصدق عمر قوله وأبطل دمه بسبب دعاء النبى ﷺ .

وهكذا فالغدر يكون جزاؤه العادل القصاص الرادع ولم تقف عدالة الفاروق على هذا الحد ، ولكن كانت البلسم الشافى للجراح التى أعياها المرض العضال فقال روى عبادة بن الصامت رضى الله عنه دعا نبطيا يمسك ، له دابته عند بيت المقدس بأبى فضربه فشجه فاستعدى عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما دعاك إلى ما صنعت بهذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أمرته أن يمسك دابتى فأبى وأنا رجل فى حده فضربته فقال زيد بن ثابت رضى الله عنه : أتقاد عبدك بأخيك فترك عمر القود وقضى عليه بالدية .

ألا ترونا أننا أمام أسطورة بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن عمر لم يكن أسطورة بل كان حقيقة ملء الزمان والمكان وكان هديا من الله للناس يقول لهم هكذا حاولوا أن تكونوا وإننا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها عمرو بن العاص حين وفد عليه من مصر فتى مكروب يقول: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ويستوضحه النبأ فيعلم منه أن محمد بن عمرو بن العاص قد أوجعه ضربا لأنه سابقـه فعلى ظهره بالسـوط وهو يقـول :

خذها وأنا ابن الأكرمين ويرسل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمد ولندع أنس بن مالك يروى لنا النبأ كما شاهده ورآه يقول : فوالله إنا لجلوس عند عمر وإذا عمرو بن العاص يقبل فى إزار ورداء فيجعل عمر يلتفت باحثا عن ابنه محمد فإذا هو خلف أبيه فقال : أين المصرى ؟ قال : ها أنا ذا يا أمير المؤمنين قال عمر : خذ الدرة واضرب بها ابن الأكرمين فضربه حتى أثخنه ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين . ثم قال عمر للمصرى : أجلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه قال الرجل : يا أمير المؤمنين استوفيت وشفيت وضربت من ضربنى . قال عمر : أما والله لو ضربته ما خلينا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ثم التفت إلى عمرو وقال : يا عمرو متى استعبدتم الناس وولدتهم أمهاتهم أحرارا والتفت إلى المصرى ، وقال له : فإن رابك شىء فاكتب إلى .

فأى عدل هذا الذى جعله يقتص من أحد ولاته وهو من هو ؟ إنه عمرو بن العاص . صحابى بل من شيوخ الصحابة وحاكم إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامى ولا ينجو ولده من العقوبة بل وتكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق . وعدله الذى غمر به جميع الناس وعم رعيته بدون استثناء أو تمييز فجعل الويل الشديد للوالى الذى يفكر فى أن يهدى لعمر هدية ما والحق أنهم جميعا كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قط فى أمر كهذا ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره فوجد رقعة من سجاد لا تزيد على متر وبعض المتر فسأل زوجته عاتكة أنى لك هذا ؟ قالت : أهداها إلينا أبو موسى الأشعرى وحينما قالت هذا كأن القيامة قامت وقال : ائتونى به ويجىء بأبى موسى تسبقه مخاوفه ولا يكاد يقترب من عمر ويلمح السجادة فى يمينه

والتحف بوجهه حتى يبادره القول لا تعجل على يا أمير المؤمنين ولكن أمير المؤمنين يعجله ويلفح بالسجادة فى رأسه ويقول له : ما يحملك على أن تهدى إلينا خذها فلا حاجة لنا فيها .

وكان الفاروق رضى الله عنه قبل أن يلى أمر المؤمنين ويصير أميرهم كان تاجرا يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من التجارة فلما تفرغ لمهمته الجديدة فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وأهله فى مستوى الكفاف ، وكان مع الأيام تزداد تبعاته وتزداد احتياجاته ونفقاته ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين فى المدينة وخارجها لكنه لا يفكر فى أن يزيد نفسه درهما واحداً حتى سمع أصحابه ذات يوما أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش فاجتمع نفر من أصحابه مع عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وطلحة والزبير واتفقوا على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه أن يزيد فى راتبه ومخصصاته لكنهم عادوا وتهيبوا محادثته لأنهم يعرفون أنه فى هذه المسألة بالذات شديد الوطأة لافح الغضب قال عثمان : فلنستبرئ من وراء واتجهوا إلى حفصة بنت عمر زوج النبى ﷺ واستكتموها أمرهم وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها ، وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة فأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق فقال عمر من بعثك إلى بهذا ؟ قالت : لا أحد قال : بل بعثك بهذا قومٌ لو عرفتهم لحاسبتهم ثم قال لابنته لقد كنت زوجة لرسول الله فماذا كان يقتنى فى بيتك من الملبس ؟ قالت : ثوبين . قال : فما أطيب طعمة رأيته يأكلها ؟ قالت : خبز شعير طرى مسرود بالسمن . قال : فما أوطأ فراش كان له فى بيتك ؟ (أى أنواع الطعام أفضل كان يأكلها وأى أفضل أنواع الفراش وألينها كان ينام عليها) قالت . كساء سخين كنا نبسطه فى الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه (معنى هذا أن السيدة حفصة تقول : كان عندنا غطاء سميك) قال يا حفصة فأبلغى الذين أرسلوك إلى أن مثلى ومثل صاحبى

الرسول، وأبى بكر كثلاثة سلكوا طريقًا فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما ألحقك بهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما .

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقا على هذا المشهد الفذ العجيب ؟ كلا فلا ندعه بدون تعليق ، وكان عدله يدفعه إلى أن يحافظ على المال العام ، وكانت القيامة تقوم إذا سمع عمر أن درهما واحدًا من الأموال العامة قد اختلس أو انتهب أو أنفق فى ترف أو إصراف أو وُضع فى غير موضعه كان يرتجف وكأن خزائن المال كلها قد ضاعت ، وليس درهما أو بعض درهم ، وكان يقسم لو أن بعيرًا من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة . نهر بالعراق وهو بالمدينة والمسافة الفاصلة بينهما تعد بمئات الكليو مترات وعمر بالمدينة .

يخاف أن يسأله الله عنه ، وذات يوم صائف قائظ يكاد حره يذيب الجبال أطل عثمان بن عفان من بناية له بالعالية فرأى رجلاً يسوق بعيرين صغيرين والهواء الساخن يغشاه لفح السموم ، فقال عثمان محدثًا نفسه ما على هذا الرجل العابر لو أقام بالمدينة حتى يبرد ، ثم أمر خادمه أن ينظر من هذا الرجل العابر من بعيد والذى تخفى الزوبعة والرمال السافيات معالمه ؟ ونظر الخادم من فرجة الباب فقال : أرى رجلاً معمما بردائه يسوق بكرين أمامه ، وانتظرا حتى اقترب الرجل فعرفه الخادم وصاح إنه عمر إنه أمير المؤمنين فأخرج عثمان رأسه من كوة صغيرة أى من طاقة صغيرة متوقيا سخونة الريح ونادى : ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟ أجاب عمر : بكرين من إبل الصدقة تخلف عن الحمى أى المرعى ، خشيت أن يضيعا فيسألنى الله عنهما . قال عثمان : هلم إلى الظل والماء البارد ونحن نكفيك هذا الأمر فقال له عمر : عد إلى ظلك يا عثمان قال : عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين . قال مرة أخرى عُدْ إلى ظلك يا عثمان ،

ومضى فى سبيله ، والحر يصهر الصخر ، فقال عثمان مأخوذا مبهوراً : من أراد أن ينظر إلى القوى الأمين فلينظر إلى عمر . إنه العدل الذى يجعل كل إنسان آمن على نفسه مطمئن على ماله وعرضه .

وهذا موقف آخر ففى يوم وهو جالس مع إخوانه يخترق الصفوف رجل ثائر ملء قبضته شعر محلوق ، ولا يكاد يبلغ عمر حتى يقذف بالشعر فى صدره فى مرارة واحتجاج ويموج الناس بالغضب ويهم بعضهم أن يفتك بهذا الرجل فيومئ إليهم عمر ، ثم يجمع الشعر بيده ويشير للرجل فيجلس ، وينتظر عليه حتى يهدأ روعه ثم يقول له : الآن ما أمرك ؟ فيجيب وقد عادت إليه ثورته أما والله لولا النار يا عمر فيقول عمر : صدقت والله لولا النار ما أمرك يا أخا العرب ؟ ويقص الرجل حكايته وفحواها أن أبا موسى الأشعرى أنزل به عقوبة لا يستحقها فجلده وحلق شعر رأسه فجمع الرجل شعر رأسه وجاء به إلى عمر ، فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ، ويقول : لأن يكون الناس كلهم فى قوة هذا الرجل أحب إلى من جميع ما أفاء الله علينا ، ثم يكتب لأبى موسى يأمره بأن يمكن الرجل من القصاص منه جلدًا بجلد وحلقًا بحلق . فلم يأخذه الغرور ، ولم تأخذ عظمة الحكم ، ولا جبروت السلطان ، ولم يغضب لنفسه ولكن هدأ من روع الرجل وأمر بالقصاص ، فأى عدل هذا ؟ .

ولم يقف الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند العدل الذى كان سمة لازمة من صفاته ، ولكن أقواله التى أوثرت عنه تبين أنه كان ألمعى الذكاء ولكن ذكاءه كان ذكاءً فطريا أى إن أى تصرف يصدر عنه ، أو قول يؤثر عنه فإنه يصدر عنه بتلقائية فطرية عجيبة ؛ وهذه طائفة من أقوله المتنوعة التى تشمل نواحى الحياة :

١ ـ فقد روى عن عبد الله مسعود رضى الله عنه قوله : كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا فى دين الله ، وكان أصحابه يتحدون بأنه ذهب وحدة بتسعة أعشار العلم ومن أقواله لست بالخِبِّ ولا الخبُّ يخدعنى .

٢ ـ الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم .

٣ ـ ويقول : ما من أحد عنده نعم إلا وجدت لها حاسدًا ، ولو كان المرؤ أقوم من القدح لوجدت له غامزًا .

٤ ـ يجاء إليه ذات يوم بمسلم ارتكب ما يوجب الحد ويشهد ثلاثة شهادة تدينه ولم يبق إلا شهَادَة الرابع . ثم يصير الحد عقابا محتوما ، ويرسل عمر يستدعى الشاهد ، ولا يكاد يراه مقبلا حتى تأخذه رهبة ، وحين تقترب خطاه ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول : أرى رجلا أرجو ألاَّ يفضح الله به واحدًا من المسلمين ، ويقدم الشاهد ، ويقول : لم أر شيئًا يوجب الحد ، ويتنفس عمر الصعداء .

٥ ـ ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظنًا أنه يحمل إليه بشرى فيقول : يا أمير المؤمنين رأيت فلانا وفلانة يتعانقان وراء النخل فيمسك عمر بتلابيبه ويعلوه بمخفقته ويقول له بعد أن يوسعه ضربًا : هلا سترت عليهما ، ورجوت لهما التوبة فإن رسول الله ﷺ قال : « من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة » .

٦ ـ ونجدة يقول هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زَلَّ زلَّةً فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا عونا عليه للشيطان .

٧ ـ وقوله لأن أعطل الحدود فى الشبهات خيرًا من أن أقيمها فى الشبهات .

٨ ـ يأتيه يومًا رجل يستفتيه قائلاً : إن ابنتى قد أصابت حَدا من حدود الله ، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركتها ، وقد قطعت بعض أوداجها فداويتها حتى برأت ، ثم تابت توبة حسنة وهى اليوم تخطب إلى قوم أفأخبرهم بالذى كان فيجيبه عمر ذو الورع الذكى والذكاء الورع . أتعمد إلى ماستره الله فتبديه ؟ والله لإن أخبرت بها أحدًا من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأنصار اذهب وأنكحها نكاح العفيفة المسلمة .

وإنه ليجاء إليه يومًا بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مزينة فلا يكاد يراهم صفر الوجوه . ضامرى الأجسام حتى يسأل من سيد هؤلاء ؟ قالوا : حاطب بن أبى بلتعة . قال : إلى به فلما جاء حاطب سأله أنت سيد هؤلاء ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين . قال : كدت أن أنزل بهم العقاب لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم لقد جاعوا فسرقوا ولن ينزل العقاب إلا لك ، ثم سأل صاحب الناقة قائلا له : كم تساوى ناقتك ؟ قال الرجل ربع مائة درهم قال عمر لحاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة درهم ثم قال للغلمان اذهبوا ولا تعودوا لمثلها . .

الله أكبر فأى نوع من أنواع الحكام كان الفاروق .

وبنا نستمع إليه حين ولى الخلافة وقف يقول لقومه : لن يغير الذى وليتم من خلافتكم شيئًا من خلقى وإنما العظمة لله وحده وليس للعباد منها شىء ويقول عن المال : إلا أنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث .

أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل إلا وإنما أنا فى مالكم هذا كولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، ويقول أيضًا فى كلمات وضاءة عزاب : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى ابن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى له خازنا وقاسمًا ويقول فى توزيع الثروة : إنى حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجزنا تأسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف .

كتبه وأقواله لقواده وولاته

وهنا نستعرض كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرشد فى كل شأن من هذه الشئون. وهذه طائفة من كتبه وأقواله .

١ ـ نجده يكتب لأبى موسى الأشعرى فيقول : من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام الله عليك أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة آسى بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمن على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحلَّ حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم لا يبطله شىء ، ومراجعة الحق خير لك من التمادى فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله . اعرف الأشباه والنظائر والأمثال ثم قس الأمور عند ذلك واعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة ينتهى إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر .

والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حد أو مُجربًا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو قرابة فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات ، وإياك والقلق والضجر والتأذى للناس والتنكر للخصومة فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن الزحر فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومَنْ تزين للناس فيما يعلم الله خلافة منه شانه الله ، وهتك ستره ، وأبدى فعله فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ . والسلام .

٢ ـ ويكتب لسعد حين يدخل عليه وفد من المجاهدين يشاركون فى فتح تكريت وجالولاء فيرى أجسادهم ضامرة ووجوههم شاحبة فيسألهم عن سبب ضعفهم فيجيبونه بأنها وخومة البلاد ورطوبتها ويكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس ويرسم له الطريق فيقول : ابعث سلمان رائدا وحذيفة فليرتادا منزلا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر وادع أبا الهياج بن مالك وأمره أن يجعلها مناهج (شوارع) عرض كل منهما أربعون ذراعيا ، وأخرى عرض كل منهما ثلاثون ذراعًا ، وأخرى عرض كل منهما عشرون ذراعًا لا تضيق عن ذلك شيئًا ، ويكتب إليه أيضًا توجيهاته العسكرية . فيقول : ترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل رفق حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يجمعون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتم وأمتعتهم ، ثم يقول : وإذا وطئت أدنى أرض العدو ، فأرسل العيون بينك وبينهم حتى لا يخفى عليك أمرهم ، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفك خبره وإن صدق فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عين لك ، وإذا دنوت من أرض العدو فأكثر الطلائع وبث السرايا . أما السرايا فتقطع إمدادهم ومرافقهم وأما الطلائع فتبلوا أخبارهم . وانتقى ـ أى اختر ـ للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم قوة واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص أحدا بهوى فيضيع من رأيك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجهة تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك . ويكتب إليه أيضا: بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها . فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب فلم يكن لها هَمٌّ إلا السمنة وإنما حتفها فى السمنة . واعلم أن للعامل مردًا إلى اللّه ، فإذا زاغ زاغت به رعيته وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته فى هذه الرسائل أدلى عمر

برأيه فى مشاكل شتى فى القضاء ، وفى العمارة ، والجهاد وفى أمانة الحكم ، وفيها وبين سطورها تتألق بدهيته ونبوغه ، وحين كان يعبر عن أفكاره فى تبسط ودعابة كانت الحكمة الذكية تملأ الكلمات والحروف .

وهذه بعض النماذج :

١ ـ يمر يوما بدار جديدة فى إحدى طرق المدينة فيسأل دار من هذه ؟ فيقولون : ـ دار فلان وفلان هذا واحد من ولاة عمر . فيقول عمر : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها .

٢ ـ يبصر ذات يوم نائحة تستجيش أحزان الناس ، وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقة ، ويطردها ، ويقول : إنها لا تبكى بشجونكم وإنما تبكى لدراهمكم .

٣ ـ وذات ليلة خرج فى جولة من جولاته التى كان يخرج فيها وحيداً والناس نيام ليطمئن على قومه ويلبى أحوالهم ويقضى الليل عن حاجاتهم وعند مشارف المدينة رأى كوخا ينبعث منه أنين امرأة ، فاقترب يسعى ورأى رجلا يجلس بباب الكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التى تئن وعلم أنها تعانى كرب المخاض، وليس معها أحدا يعينها لأن الرجل وزوجته من البادية ، وقد حطا رحالهما هنا وحيدين غريبين ، ورجع عمر إلى بيته مسرعا، وقال لزوجته أم كلثوم بنت الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : هل لك فى مثوبة ساقها الله إليك ؟ قالت: خيرا . قال: امرأة غريبة تلد وليس معها أحد . قالت الزوجة المؤمنة: نعم إن شئت وقام وأعد من الزاد والماعون وما تحتاج إليه الوالدة من دقيق وسمن وقطع ثياب يلف فيها الوليد، وحمل أمير المؤمنين القدر على كتف والدقيق على كتف آخر. وقال لزوجته : اتبعينى ويأتيان الكوخ، وتدخله أم كلثوم زوج أمير المؤمنين لتساعد المرأة فى مخاضها أما أمير المؤمنين فيجلس خارج الكوخ وينصب الأثافى (كانون) ويضع فوقها القدر ويوقد تحتها النار، وينضج للوالدة طعاما والزوج يرمقه شـاكراً

(ينظر) ولعله كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربى الطيب القلب أولى بالخلافة من عمر وفجأه صدح فى الكوخ صراخ الوليد لقد وضعته أمه بسلام وإذا صوت أم كلثوم ينطلق من داخل الكوخ عاليا يا أمير المؤمنين ، ويفـهق الـزوج من الدهشة ويستأجر بعيدا على استحياء ، ويحاول أن ينطق الكلمة أميـر المؤمنين، ولكن شفتيه لا تقويان على الحـركة مـن فرط ما خلفته المفاجاة من سعادة وطرافة وذهول،ويلاحظ عمر كل هذا فيشير للرجل أن ابق مكانك لا تبرح ، ويحمل أمير المؤمنين القدر ويقترب من باب الكوخ مناديا زوجته خذى القدر يا أم كلثوم وأطعمى الأم أشبعيها وتطعمها أم كلثوم حتى تشبع وترد القدر إلى عمر بما بقى من طعام ويضعها عمر بين يدى الأعرابى ويقول له : كل واشبع فإنك قد سهرت طويلا وعانيت كثيراً ، ثم ينصرف هو وزوجته بعد أن يقولا للرجل إذا كان الصباح فأتنى بالمدينة لآمر لك من بيت المال بما يصلحك ولنفرض للوليد حقه .

رضى اللّه عن عمر وإنه لحق ما قال الرسول ﷺ فيما يرويه البخارى ومسلم رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : « بينما أنا نائم إذ رأيت قدحا أوتيت به فيه لبن فشربت منه حتى أنى لأرى الرى فى أظافرى ، ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب ». قال أصحاب الرسول فماذا أولته يا رسول الله ؟ قال : «العلم».

٤ - إنه يلتقى ذات ليلة بسيدة تسير وحدها فى المدينة حاملة قربة كبيرة ، فيقترب منها ، ويسألها عن أمرها فيعلم أنها ذات عيال ، وليس لها خادم وأنها تنتظر حين يرخى الليل أستاره فتخرج لتملأ قربتها ماء فيأخذ منها القربة ، ويحملها عنها وهى لا تعرف من هو حتى إذا بلغ دارها قال : وهو يناولها قربة الماء إذا أصبح الصباح غدا فاقصدى عمر يرتب لك خادما . قالت : إن عمر كثر شغله وأين أجده ؟ قال : اغدى عليه (أى اذهبى إليه) وستجدينه إن شاء الله ، وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة أنت هو إذا ؟ ويضحك أمير المؤمنين ثم يأمر لهـا بخـادم

ونفقة .

٥ ـ روى أن رسول الله ﷺ قال فى حضرة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : « ستأتيكم إمداد أهل اليمن فيهم أويس بن عامر القرنى فى جسده بياض قد ذهب إلا موضع جرح فاجعلوه يستغفر لكم إنه بَر بأمه لو أقسم على الله لأبره وتوفى الرسول ﷺ ، وتولى الخلافة من بعدة أبو بكر رضى الله عنه وتوفى هو كذلك ، وفى خلافة الفاروق وفى موسم الحج اجتمع بالحجيج وقدم عليه إمداد اليمن فقال : أفيكم أويس بن عامر فوقع السؤال على عَمّه فقال : ذاك أويس تركناه يرعى الإبل فى عرفة فحف إليه الفاروق (أسرع إليه الفاروق) ، وعلى بن أبى طالب فقالوا : أويس ؟ . قال : نعم . قالوا : أرنا جسدك . قال : ولِمَ ؟ . قالوا : هل كان به بياض قد ذهب إلا موضع درهم ؟ قال : نعم فلما تأكدوا قالوا : ادعو الله واستغفر لنا قال : من أنتم ؟ قالوا : عمر وعلى . قال : ولِمَ ؟ قالوا : لأنك بَرٌّ بأمك لو أقسمت على الله لأبرك .

وتعليقا على هذا أن أويس كان له أم لا تسطيع أن تقضى شيئًا من حاجتها وهو كان يقضى لها ذلك فأى منزلة كانت هذه : ألا ما أفضل هذه اللحظات الناصعة الممتعة التى عشتها مع الفاروق وتنقطع منا الأنفاس بتلك الخطى المحبورة التى تابعنا بها قليلا من الوقت رجلا يسابق الزمان ، وإذا أردنا أن نعبر عن انبهارنا البالغ أشد فلنوفر على أنفسنا عنّا ما لا يطمع فيه ولا يقدر عليه وليسعنا فى هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود لِلَّه دَرُّ ابن الخطاب أى أمير كان ؟! فرضى الله عنهم أجمعين إن كل واحد من صحابة رسول ﷺ يعد مدرسة قائمة بذاتها ولا نغالى إن قلنا إن كل واحد منهم يعد جامعة ، ومن خلال وقوفنا على أفعال هؤلاء البررة وأقوالهم لنجد أنهم يشملون جوانب الحياة كلها بما تعد أقوالهم وأفعالهم ذخرا وغيثا لا ينقطع للبشرية جمعاء على مدار الأزمان ، ويمكن لنا فى عصرنا الحالى أن نستفيد بهذه الأقوال والأفعال بما يعود بالنفع الكثير علينا وعلى

مجتمعنا لأن الصحابة رضى الله عنهم قد تحدثوا وبحثوا فى جميع نواحى الحياة والتقدم والتطور الموجود الآن فاقرأ فى سيرة هؤلاء الصحابة تجد أنهم قد تحدثوا وبحثوا فى جميع نواحى الحياة من قانون وعلوم وتخطيط وطب وجميع نواحى العلوم الإنسانية والدينية والاجتماعية وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقوله أيضًا : « الله الله فى أصحابى» فقف أيها القارئ على عدلهم .

روى الطبرى عن إياس بن سلمة قال ـ مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال : أمط الطريق أى وسع الطريق . فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال يا سلمة تريد الحج ؟ فقلت نعم فأخذ بيدى وذهب إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال استعن بها على حاجتك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها فهذه خفقة يسيرة لم تؤثر فى صاحبها حتى أنه نسيها ولم يعد يذكرها ولكن الفاروق لم ينساها واسترضى صاحبها بهذا القدر من المال من أجل أن يغفرها .

وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة مكان بالمدينة .

وأقام حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال يا أسلم أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون . أى يبكون من شدة الجوع . فقال عمر السلام عليكم يا صحاب الضوء قالت المرأة وعليك السلام فقال أأدنو قالت ادن بخير أو دع فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يبكون قالت الجوع قال وأى شىء فى القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا الله بيننا وبين عمر فقال أى رحمك الله ما يدرى عمر بكم قالت: يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل على فقال انطلق بنا وخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق

فأخرج جوالا فيه سمن وفيه دقيق وغيره فقال أحمله على قلت أنا أحمله عنك قال احمله على ثلاث مرات كل ذلك أقول أنا أحمله عنك قال أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وإنطلقت معه نهرول حتى أتينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج ما معه ونصب القدر وأخذ ينفخ النار حتى أن الدخان كان يخرج من لحيته وكانت كثيفة .

حتى أنضج لهم طعام وجعل يقول لها أطعميهم فلم يزل حتى شبعوا وقام وهى تقول جزاك الله خيرا لأنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولى خيرا إنك إن جئت أمير المؤمنين وجدتنى عنده إن شاء لله ولم ينصرف حتى رأى الصبية يصطعون ويضحكونه ثم نامر وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال يا سلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت الا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم.

عدل عمر فى الغنائم:

فى أحد المعارك الإسلامية وجد القائد المسلم سلمة بن قيس الأشجعى حلية وفصوصًا وجواهر فقال لأصحابه أتطيب أنفسكم ان نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين فإنه غير صالح لكم وإنه على أمير المؤمنين لمؤنة وأثقالاً ؟ فقالوا : نعم قد طابت أنفسنا فجعل الجواهر فى صرة فلما وصلت عمر نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر وثب وجعل يده فى خاصرته ويصيح صياحًا عاليًا ويقول : لا أشبع الله إذا بطن عمر وأخذ يكررها حتى ظن النساءُ أنى جئته لاغتياله ثم قال: النجاة النجاة قلت : يا أمير المؤمنين . فاحملنى فقال : أظنك ستبطئ أما والله لئن تفرق المسلمين فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة ـ أى الداهية ـ فارتحلت حتى أتيت سلمة بن قيس فقلت ما بارك الله فيما اختصصتنى به أقسم هذا فى الناس قبل أن يصيبنى وأنت داهية فقسمه فيهم فكان الفص يباع بخمسة دراهم وبستة وهو خير من عشرين ألفًا .

فانظر رحمك الله إلى عدله الذى وما يزال مضرب الأمثال رفض أن يتميز عنه غيره من عامة الناس وإنه كان هذا الشىء يسيرًا . فأى عدل هنا .

جئتك من عند أعدل الناس وأزهدهم:

استعمل عمر ـ رضى الله عنه ـ على حمص رجلاً يقال له : عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب إليه أن أقدم علينا فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه عمير ماشيًا حافيًا عكازته بيده وإداوته ومزودته وقصعته على ظهره فلما نظر عمر قال له: يا عمير أجد بنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء ، وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ؟ فقال له: وما معك من الدنيا ؟ قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوًا إن لقيته ومزود أحمل فيه طعامى وإداوة أحمل فيها ماءً لِشربى وطهورى وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسى وآكل فيها طعامى فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى فقام عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر ، وعمر فبكى بكاءً شديدًا ثم قال : اللهم ألحقنى بصاحبى غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد إلى مجلسه فقال : ما صنعت فى عملك يا عمير ؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل والجزية من أهل الجزية عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين أبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتك به فقال عمر : عد إلى عملك يا عمير أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى أهلى ، فأذن له فأتى أهله .

فبعث عمر رجلاً فقال له: جئتك بمائة دينار وقال : اختبر لى عميرًا وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو فى سعة أو ضيق فإن كان فى ضيق فتدفع إليه الدنانير فأتاه حبيب فنزل به ثلاثًا فلم ير له عيشًا إلا الشعير والزيت فلما مضى ثلاثة أيام قال : يا حبيب إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم يكونوا أوسع عيشًا منا فإننا والله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به فدفع إليه الدنانير ، وقال :

بعث بها أمير المؤمنين فدعا بفرو خلق ـ قديم ـ لامرأته فجعل يصر منها الخمسة والستة والسبعة ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفذها فقدم حبيب على عمر وقال : جئتك يا أمير المؤمنين من عند أعدل الناس وأزهدهم وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير فاز له عمر بوسقين أى أمر له بحمل بعير طعام فقال: يا أمير المؤمنين أما الوسقين فأقبلهما وأما الطعام فلا حاجة لى بهما عند أهلى صاع [أى قدر من الطعام] هو كافيهم حتى أرجع إليهم .

ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه

١ ـ ما روى عن أبى الفرات قال كان عثمان رضى الله عنه عبد فقال : إنى كنت عركت أذنك فاقتص منى فأخذ بأذنه ثم قال عثمان رضى الله عنه : اشدد يا حبذا قصاص فى الدنيا ولا قصاص فى الآخرة هذا الصحابى الجليل ذو النورين كان فى ساعة غضب فأمسك بأذن خادمة وعبده فعرقها عرقا ، ثم استدرك وتفكر أنه سيقتص منه يوم القيامة فانهالت عيناه بالدموع ونادى على عبده وقال له : اقتص منى لأن القصاص فى الدنيا أهون من القصاص يوم القيامة أمام الله عز وجل يأبى الخادم أن يفعل هذا ولكن ذا النورين أصر على أن يقتص منه العبد قال هذه العبارة الجميلة : اشدد يا حبذا قصاص فى الدنيا ولا قصاص فى الآخرة (١).

٢ ـ أخرج الإمام الشافعى فى مسنده عن نافع بن عبد الحارث قال : قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مكة فدخل دار الندوة فى يوم الجمعة ، وأراد أن يستقرب منها الرواح إلى المسجد فألقى رداءه على واقف بالبيت (٢) .

فوقع عليه طيرا من هذا الحمام فأطاره فانتهرته حية فقتلته فلما صلى الجمعة دخلت عليه أنا وعثمان بن عفان فقال احكما على فى شىء صنعته اليوم إنى دخلت هذه الدار وأردت أن أستقرب منها الرواح إلى المسجد فألقيت ردائى على هذا الواقف فوقع عليه طيرًا من هذا الحمام فخشيت أن يلطخه بسلحه (روث الحمام) فأطرته من منزل كان فيه آمنا إلى موقعة كان فيها حتفه فقلت : لعثمان ابن عفان كيف ترى فى هذا ؟ فحكما على أمير المؤمنين أن يتصدق بشىء من المال مقابل هذا الطير الذى لقى حتفه .

---

(١) مناقب العشرة : الطبرى ٢ / ١١١ .

(٢) مسند الشافعى (٣٧) .

سماحته وحياؤه :

لقد [١] بلغ بسماحته رضى الله عنه مستوى قياسيا لم ينهض إليه سواه حتى هتف به الرسول ﷺ يوما أمام مشهد من مشاهد هذه السماحة الباهرة قائلاً : ما ضَرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راضٍ . وإلى هذا المستوى بلغ حياؤه حتى زكاه الرسول ﷺ قائلاً : أصدق أمتى حياءً عثمان ، وتروى لنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فتقول : إن أبا بكر استأذن يوما على رسول الله وكان الرسول مضجعًا وقد انحصر جلبابه عن إحدى ساقيه فأذن لأبى بكر فدخل وأجرى مع الرسول حديثا ، ثم انصرف وبعد قليل جاء عمر فاستأذن له فقضى معه وقتا وانصرف ثم استأذن عثمان وإذا الرسول يتهيأ لمقدمه فيجلس بعد أن كان مضجعًا ويسبل جلبابه فوق ساقه المكشوفة ويقضى عثمان معه بعض الوقت ، ثم ينصرف ، وبعد انصرافه تسأل عائشة الرسول ﷺ قائلة : يا رسول الله لم أرك تهيأت لأبى بكر وعمر كما تهيأت لعثمان ؟ فيجبها الرسول إن عثمان رجل حيى (مبالغة فى كثرة حيائه) ولو أذنت له وأنا مضطجع لاستحى أن يدخل على ولرجع دون أن أقضى له الحاجة التى جاء من أجلها يا عائشة ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة وروى أيضا عن الرسول ﷺ : أنه قال : أرحم أمتى أبو بكر ، وأشدها فى دين الله عمر وأشدها حياء عثمان .

أثر الهجرة فى نفسه :

كان عثمان أول من هاجر إلى الحبشة هو وزوجه رقية بنت الرسول ﷺ ووقف الرسول يودعهما بنظراته الحانية وقلبه الودود ، ويقول إنهما لأول من هاجرا إلى الله بعد نبى الله لوط ، وروى عندما حاصره الثوار وهو خليفة يريدون عزله أو اغتياله تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأى وهذه المشورة قائلا يا أمير المؤمنين قد نزل بك ما ترى وإنى أشير عليك بثلاث اختر إحداهن إما أن

---

(١) حياة الصحابة : الكندهلوى ٢/ ٩٥ .

تخرج فتقاتلهم فإن معك قوة وعددًا وأنت على الحق وهم على الباطل وإما أن نفتح لك من خلف الدار باب تخرج منه فـى غفلة منـهم حيث تحملك رواحلك إلى مكة فإنهم لن يستحـلوا دمك وأنـت بهـم وإما أن تلحق بالشام فـإن فيهـا معاويـة .

ويجيب الخليفة بكلمة ليس فيها دهاء ولا مناورة قائلا أما أن أخرج فأقاتلهم فوالله لأن أكون أول من يخلف رسول الله ﷺ فى أمته بسفك الدماء ، وأما خروجى إلى مكة فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوما : يلد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم . ولن أكون هذا الرجل ، أما خروجى إلى الشام لأن فيها معاوية فلا والله لن أفارق دار هجرتى ومجاورة رسول الله ﷺ ما حييت .

نعم المال الصالح للرجل الصالح:

لقد تنازل عثمان لإسلامه وهجرته عن جاهه وعن ماله وعن حياته فى سماحه منقطعة النظير ، وهذه بعض مواقفة لقد كان يبدو بعطائه وسخائه وكأنه هو الممول الوحيد للأمة الناشئة الجديدة وهذه نماذج .

١ ـ عندما هاجر من مكة إلى المدينة وكان بها عين تفيض بماء عذب طيب المذاق وتدعى بئر روما ، وكان يملكها يهودى يبيع الماء للمسلمين وتمنى رسول الله لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن وسارع عثمان إلى تحقيق رغبة الرسول ففاوض اليهودى صاحب البئر فأبى فساومه على نصفها واشترى النصف باثنى عشر ألف درهم على أن يكون لليهودى يوم ولعثمان يوم فكان المسلمون يستقون فى يوم عثمان ما يكفيهم يومين وهكذا خسر اليهودى سوقه الرابحة فعرض على عثمان أن يشتريها فاشتراها ووهبها للسلمين .

٢ ـ عندما كثر الداخلون فى دين الله خاف المصعب على منه فيه فتمن الرسول ﷺ أن يكون من أصحابه من يشترى الرقعة المجاورة للمسجد ولم يكن غير عثمان اشترى هذه الأرض بخمسة وعشرين آلفا .

٣ ـ عندما فتح الله على رسوله الكريم مكة وأراد أنه يوسع المسجد الحرام وكان بجواره بيت لأسرة فاغترت أنها ليس لها إلا هذا البيت وليس معهم مال يشترون به آخر ولم يكد الخبر يصل إلى سمع عثمان حتى سارع إلى أصحاب هذا المنزل واشتراه منهم بعشرة آلاف دينار .

٤ ـ عندما سمع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك نظر إلى الصفوف الطويلة وقال من يجهز هؤلاء ويغفر الله له، ولم يكد يسمع عثمان هذا حتى سارع إلى مغفرة الله عز وجل يقول ابن شهاب قدم عثمان لجيش العسرة فى غزوة تبوك ٩٤٠ بعير و٦٠ فرس أتم الألف ويقول حذيفة قدم عثمان ١٠ آلاف دينار صبها بين يديه فجعل الرسول ﷺ يقلها بيديه ويقول غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وهو كائن كان إلى يوم القيامة .

الأواب الرحيم:

١ ـ زوجه النبى ﷺ ابنته رقية ولما توفاها الله إليه زوجه ابنته أم كلثوم ولما انتقلت إلى الرفيق الأعلى أسف الرسول ﷺ إذ لم يكن له كريمة أخرى يزوجها صهره وقال قولته المأثورة لو أن لنا ثالثة لزوجناك إياها . بل إن الحديث يروى بمعنى أخر فيقول فيه الحبيب ﷺ لو أن لى أربعين بنتًا لزوجتهن عثمان واحدة بعد واحدة .

٢ ـ يقول الرسول ﷺ لكل نبى فى الجنة رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان وقال واصفوه: كان عثمان يصوم الدهر ويقوم الليل إلا هجعة من أوله ويقول عن نفسه ما زنيت ولا سرقت ولا شربت خمرًا فى جاهلية ولا فى إسلام .

٣ ـ قحط الناس فى زمان أبى بكر فقال الخليفة لهم إن شاء الله لا تمسون غدًا حتى يأتيكم فرج الله . فلما كان صباح الغد قدمت قافلة لعثمان فغدا عليه التجار فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه وسألوه أنه يبيعهم قافلته . فسألهم كم تربحوننى قالوا العشرة اثنى عشر قال قد زادنى . قالوا العشرة خمسة عشر. قال قد زادنى قالوا من الذى زادك ونحن تجار المدينة .

قال إنه الله زادنى بكل درهم عشرًا فهل لديكم أنتم مزيد فانصرف التجار عنه وهو ينادى اللهم إنى وهبتها لفقراء المدينة بلا ثمن وبلا حساب .

٤ ـ يقول عبد الله بن شداد : رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوب

قيمته أربعة دراهم أو خمسة دراهم وإنه يومئذ لأمير المؤمنين وكان يطعم طعام الإمارة للناس ويأكل هو الخل والزيت .

أقواله رضى الله عنه:

كان رضى الله عنه إشفاقًا من الآخرة عظيمًا نراه فى خطبه يقول يا أيها الناس اتقوا الله فإن تقوى الله غنم وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واكتسب من نور الله نورًا لقبره وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرًا .

ويقول أيضًا . إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطوكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تغنى وإن الآخرة تبقى فآثروا ما يبقى على ما يفنى إن الدنيا منقطعة والمصير إلى الله وحده .

لو أنى بين الجنة والنار لا أدرى إلى آيتهما يؤمر بى لتمنيت أن أصير رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

الرسول ﷺ يبشره بالشهادة يوم كان يقف على مُرتفع من جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فارتجف المكان الذى يقفون فوقه فضربه الرسول ﷺ ويقول اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان. إنه شيخ فى الثمانين من عمره بل جاوز الثمانين .

وإنه من المؤمنين الأوائل المبكرين .

وإنه صهر الرسول ﷺ وخليفته ومجهز جيش العسرة .

عـدل الإمـام علـى ﷺ

إن المتتبع لحياة الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ ليجد أنها مليئة بالأمثال الباهرة من أمثلة العدل الذى يندر وجودها وهذه بعض النماذج التى تزين سيرة الإمام:

١ ـ فيروى البيهقى أنه قدم على علىّ ﷺ مال من أصبهان فقسمه على سبعه أسهم فوجد فيه رغيفا فكسره على سبعة وجعل على كل قسم منه كسرة ثم دعا الأمراء فأقرع بينهم لينظر أيهما يعطى أولا (إن موقفا كهذا ليجعل المرء يحار وتصاب رأسه بالدوار من رجل يقسم المال بالإنصاف والعدل دون أن يعطى أحدًا زيادة أو نقصانا ثم يبقى من بعد هذا التقسيم رغيف ولعل سائل يقول : وما قيمة هذا الرغيف حتى يحدث هذه الضجة كلها ؟ والجواب: إن الإمام أراد أن يحقق العدل فى كل شىء حتى وإن كان رغيفًا من القمح .

٢ ـ روى عن عيسى بن عبد الله أنه قال : أتت على ﷺ امرأتان تسألانه امرأة عربية ومولاة لها ، فأمر لكل واحدة بطعام وأربعين درهما فأخذت المولاة الذى أعطيت وذهبت وقالت العربية : يا أمير المؤمنين تعطينى مثل الذى أعطيت هذه وأنا عربية وهى مولاة قال لها الإمام على ﷺ : إنى نظرت فى كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلا لولد إسماعيل على ولد إسحاق ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فهذه امرأة عربية تعتز بعروبتها وتريد أن يكون لها شىء يميزها عن غيرها فتراجع الإمام على بصفته الحاكم العام للدولة الإسلامية فيكون عنده من سعة الصدر بأن يتحمل هذه المرأة وهى تسأله ؛ فأحس الإمام على أنه ليس من العدل ألا يسوى بين الاثنين فأجاب بهذه الكلمة القاضية الفاصلة بأن قال : إنى نظرت فى كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلا لولد إسماعيل على ولد إسحاق .

وهذا جعدة بن هبيرة جاء إلى على فقال : يا أمير المؤمنين . يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه ومن أهله وماله والآخر لو يستطيع أن يذبحك

لذبحك فتقضى لهذا على هذا ، فلهذه أى ضربه بجمع الكف فى صدره ـ على رضى الله عنه ـ وقال: إن هذا شيء لو كان لى فعلت ولكن إنما ذا شيء لله ! ومن شاء أن يتعرف إلى حياة الإمام وسلوكه فليقرأ كلماته ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله تفاوت أو تناقض أجل لم يكن بين ما يقول وما يفعل بعد ولا مسافة ولا فراغ فإذا حث الناس على الزهد كان أسبقهم إليه . وإذا حثهم على البذل كان أقدرهم عليه صلى الفجر يومًا بأصحابه فى الكوفة وهو أمير للمؤمنين ، فلما فرغ من صلاته جلس ساهما حزينًا ولبث فى مكانه ومجلسه والناس من حوله يحترمون صمته فلا يزالون حتى طلعت الشمس شعاعها العريض على حائطى المسجد فنهض الإمام وصلى ركعتين ثم هز رأسه فى أسى وقلب يده وقال . والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار الليل باتوا فيه سُجَّدًا لله يتلون كتابه ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم . . وإذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الربيع وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم .

هذه صورة الأيام الجليلة الرائعة أيام الوحى والرسالة . وإنه ليُحدِّث المسلمين عن الإسلام الذى أمن به وجعله كتاب حياته فيقول :

تعلموا العلم تعرفوا به واعملوا تكونوا من أهله . ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد أتت مُقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا . ألا وإن الزاهدين فى الدنيا قد إتخذو الأرض بساطًا والتراب فراشًا والماء طيبًا . ألا وإن من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات .

ومن أشفق من النار رجع عنه المحرمات . ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه مصائبها . ألا وإن لله عبادًا شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة . صبروا أياما قليلة لعقبة راحة طويلة . إذا رأيتهم فى الليل رأيتهم صافين أقدامهم تجرى دموعهم

على خدودهم يجأرون إلى الله فى فكاك رقابهم .

وأما نهارهم فظماء حُلماء بررة أتقياء كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى وما بهم من مرض ولكنه الأمر العظيم .

ذلك هو شغله الشاغل ينام على هديره ويصحو على ذئيره ألم يقل سلونى وسلونى وسلونى عن كتاب الله ما شئتم . فو الله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت فى ليل أم فى نهار من أجل هذا يقضى ليله ونهاره فى عبادة يضنى جسمه الأيد ـ أى القوى ـ الوثيقة ـ ومن أجل هذا يدع الدنيا وراءه ظهريًا فيأبى وهو خليفة للمسلمين أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة ويؤثر عليه الأرض الخلاء والدار المهجورة يلحون عليه كى ينزل قصر الإمارة هذا فيجيبهم لا قصر الضال لا أنزله أبدا من أجل هذا يلبس الثوب الخشن فيسأله أصحابه أن يعطى نفسه ومنصبه بعض حقهما فماذا يكون جواب هذا العادل فيقول: هذا الثوب يصرف عنى الذهو ويساعدنى على الخشوع فى صلاتى .

وكان دائما يتلو هذه الآية الكريمة ـ ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

إنه لا يركن إلى الدنيا لحظة من نهار لذلك نجده يقول . . ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ولم أر كالنار نام هاربها . ألا وإن من لم ينفعه الهدى ماذا به الضلال ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر . وإنى أخوف ما أخاف عليكم اتباع هوى وطول الأمل فإن اتباع الهوى يصد عنه الحق وإن طول الأمل ينسى الآخرة .

ونجده يقول عندما ذم الدنيا مذمة العاجز المتواكل حتى يقول : الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى وزاد لمن تزوّد منها مهبط وحى الله . ومسجد أنبيائه . ومتجر أوليائه . ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة .

أجل هذه هى دنيا المسلم كما يفهمها ربيب الوحى وسابق المسلمين ولذلك

نراه وهو يخطب أصحابه فى أول جمعة له بالكوفة وهو أمير المؤمنين لا يخطب عباد الله خطبة خليفة ولا أمير ولا حاكم فماذا كان يقول . يقول : أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباده وأقرب الأعمال لرضوانه وأنظمها فى عواقب الأمور عنده وبتقوى الله أمرتم وللإحسان خلقتم فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه فإن حذر بأسًا شديدًا وإخشوا الله خشية ليست بتعزيز واعملوا من غير رياء ولا سُمعة فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل وعمل مخلصا له تولاه الله وأعطاه فضل نيته وأشفقوا من عذاب الله فإنه لم يخلقكم عبثًا ولم يترك شيئًا من أمركم سدى قد سمى آثاركم وعلم أسراركم وأحصى أعمالكم وكتب آجالكم فلا تغرنكم الدنيا فإنها غرارة لأهلها والمغرور من اغتر بها وإن الآخرة لهى دار القرار . إن هذا الخطاب لم يكن خطاب رئيس دولة بل خطاب مسلم ومؤمن وجه وجهه وقلبه وحياته للذى فطر السماوات والأرض ونجده يقول عندما لا يجد بدله من محاربة ولقاء معاوية فيوصى قواته قائلا . ألا إنكم ملاقو القوم غدًا فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم وأكثروا تلاوة القرآن وسلوا الله الصبر والعفو والعافية ونجده يقول فى كتابه الذى أرسله الى عمرو بن العاص أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها وصاحبها مقبور فيها ومنهوم عليها لم يصب منها شيئا قط إلا فتحت له حرصه وإلا أدخلت عليه مؤنة تزيده رغبة فيها ولن يستغنى صاحبها بما ناله عمًّا لم يبلغه ومن وراء ذلك فراق ما جمع والسعيد من وعظ بغير فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ولا تجارين معاوية فى باطله فإن معاوية غمط الناس وسفه الحق .

يصله خبر أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية ولعنه فقدما عليه وسألاه : يا أمير المؤمنين ألسنا على الحق وهم على الباطل أجابهم الإمام بلى وربِّ الكعبة قالوا فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم ـ قال الإمام كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين ولكن قولوا اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغى من لج به .

والإمام على رضى الله عنه كان من أعرف الناس برسول الله ﷺ عرفه حين كان يضن على نفسه بشربة لبن ثم يرسلها لفقير من فقراء المسلمين . وعرفه يوم أرسل إليه زوجته فاطمة بنت الرسول ﷺ . تسأله حقا يسيرًا ناله جميع المسلمين فإذا هو يجبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه لا يا فاطمة أعطيك وأدع فقراء المسلمين .

وعرفه حين رأى عمه العباس يسأل الرسول ولاية هو لها أهل وبها جدير فإذا الرسول ﷺ يجبه فى أسف إنا والله يا عم لا نولى هذا الأمر أحد يسأله أو أحدًا يحرص عليه .

وحينما سعى أبو سفيان أكثر من مرة إلى الإمام على يحضه على الاستمساك بحقه فى الخلافة ويقول . إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً ولأسدَّنها عليهم من أقطارها فماذا كان جوابه قال : يا أبا حنظلة إنك تدعونى لأمر ليس من أخلاقنا ولا من شيمنا ولقد سددت دونها بابا وطويته عنها كشحا . إنه العدل الذى جعله يوازن بين كل شىء حتى بين نفسه وما تهوى إليه . ومن أقواله المشهورة ما حاجة الحق إلى أن يُساوم وإذا ساوم الحق فما مزيته على الباطل .

وعرفه أكثر وأكثر يوم فتح مكة حين حمل عليٌّ مفتاح الكعبة وتوجه تلقاء الرسول ﷺ ـ وهو جالس وسط أصحابه فى المسجد الحرام وقال له يا رسول الله اجعل لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فإذا الرسول ﷺ يبسط إليه يمينه ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادى أين عثمان بن طلحة وكانت وظيفته حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائما أدناه الرسول ﷺ منه ووضع مفتاح الكعبة فى يده وقال له . هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء ثم يلتفت صوب ابن عمه على ويقول . له إنما أعطيكم ما تدرءون لا ترزؤون . أى أن حظكم فى هذه الحياة الدنيا المسئولية مع الشظف لا شىء دون ذلك ولا شىء فوق ذلك . أما بقية الدنيا من منصب أو جاه أو مال فلا ينبغى لكم أن تنافسوا فى شىء من ذلك أحدا ولا أن ترزؤوا فيه مخلوقا

فعندما بويع الصديق أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة استأخرت يمين الإمام علىّ عن البيعة لماذا؟. لقد أعطى هو السبب فى وضوح خلال حواره مع الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال . . إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم فى الناس وتنكرون عليهم حقهم أما والله لهن أحق منكم بالأمر ما دام فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه فى دين الله العالم بسنة رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية القاسم بينهم بالسوية والإمام فى هذا كان يدافع عن حق رآه واعتقده ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أو شك .

ماذا كان يقول فى رثائه فى أبى بكر رضى الله عنه بعد وفاته فيقول :

رحمك الله أبا بكر ـ كنت والله أول القوم إسلاما . وأخلصهم إيمانًا وأشدهم يقينا صدقت رسول الله حين كذبه الناس . وواسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا . كنت والله للإسلام حصنًا وللكافرين ناكبًا لم تهن حجتك . ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك ـ كنت والله كما قال الرسول فيك ـ ضعيفا فى بدنك قويًا فى دينك ـ متواضعًا فى نفسك فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك .

وكان رضى الله عنه . فى موقعة الجمل نجده يتوسط الصفوف المتلاحمة كالطوفان فصاح فى طلحة صيحة احتشد فيها كل ما ورثه أباؤه من شرف ونخوة يا طلحة أخبأت غرسك فى البيت وجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وزأر الأسد زئيرا هذا رجاء الأفق وسقط المطر فجأة على غير عادته وكأنما هى دموع السماء هزتها روعة الكلمات وأساها . ثم التفت صوب الزبير وقال وأنت يا زبير أتذكر يوم كذا عندما رأيتنى مقبلا على رسول الله فضحكت لى فسألك الرسول أتحبه يا زبير فقلت نعم فقال أما أنك لتقاتلنه وأنت له ظالم وصاح الزبير لقد ذكرتنى بما قد نسيت وألقى سيفه إلى الأرض وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلل الأرض أمامه وعاد إلى صفوف فغادر طلحة أرض القتال وغادرها الزبير بعد

أن سمعا كلام الإمام وبعد أن علما أن عمار بن ياسر يقاتل فى جبهة الإمام على وتذكر ما كان الرسول ﷺ ـ قد قال ذات يوم لعمار تقتلك الفئة الباغية بيد أن الأضغان المريبة لم تدعهما ليذهبا فى سلام . فأما الزبير فقد تربصت به عصابة فى الطريق فقتلته . وأما طلحة فلم يكد مروان بن الحكم الأموى يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربص به ورماه بسهم أنهى حياته .

وهذا موقفه مع أعدائه فيقف وسط جنده وأصحابه فيقول لا تتبعوا موليًا . ولا تجهز على جريح ولا تنتهبوا مالا. ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن يقول المؤرخون : فكان أتباع الإمام يمرون بالذهب والفضة .فلا يعرض لهم أحد .

لقد نفذوا الإمام فى مرارة وضيقة أو هكذا كانه شأن بعضهم على الأقل مما جعلهم يسألون الإمام ـ كيف حلّ لنا قتالهم ولم يحلّ لنا سبيهم وأموالهم فأجابهم الإمام ليس على الموحد بين المؤمنين سبى ولا يغنم من أموالهم إلا ما تلوا به وعليه . كان الخليفة يعلم أن نهيه هذا سيؤلب ضده بعض مؤيديه من ضعاف الوازع ولكن لينفض عنه الناس أجمعون إذا كان إشارة الحق سيظل قصده وسبيله لأنه يهدف إلى إقامة العدل مهما كان ثمنه ومهما كان ثمنه .

وهذا عمرو بن جرموز قاتل الزبير بالباب فى الدخول وأذن الإمام بدخلوله ودخل القاتل مذهوا فخورًا يظن أن الخليفة سيهشً ويبش له ويستقبله استقبال الأبطال لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ فى وجهه أهذا الذى تحمله سيف الزبير قال وقد هزمت غروره صرخة الإمام نعم هو سلبته منه بعد أن قتلته . فأخذه منه الإمام بيمينه ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه فى خشوع إلى فمه ثم قبله فى حنان وحزن وقال ودموعه تسيل على وجنتيه فقال: سيف طالما والله فرج به صاحبه الكرب عن رسول الله . ثم صوّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له أما أنت فأبشر يا قاتل ابن صفية بالنار .

وخرج عمرو بن جرموز يتعثر فى خزية وخيبة أمله ويقول عجبًا لكم نقتل أعداءكم وتبشروننا بالنار .

نجده يرتدى الخليفة جلبابًا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم ويركب حمارًا وقد تدلت على جانبيه ساقاه وكأنه واحد من فقراء البادية ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جوادًا يليق بأمير المؤمنين فيجبهم قائلاً . . دعونى أوهن هذه الدنيا .

ويقف الإمام فى العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص الفتنة كلها فى كلمات تناهت فى الصدق والعدالة والوضوح وعفة المقال .

أما بعد فإن الله بعث نبيه ﷺ فأنقذ به من الضلالة وحفظ به من الهلكة وجمع به بعد الفرقة ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه ثم استخلف الناس أبا بكر ثم استخلف أبو بكر عمر ولقد أحسن السيرة وعدلا فى الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر ولكنا غفرنا ذلك لهما. ثم ولى أمر الناس عثمان بن عفان رضى الله عنه . فعمل بأشياء عابها الناس عليه فسار إليه ناس فقتلوه ثم جاءنى الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لى بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرُعنى إلا شقاق رجلين فقد بايعنى يقصد طلحة والزبير . وخلاف معاوية إياى هذا الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ولا سلف صدق فى الإسلام طليق بن طلق دخلا فى الإسلام كارهين مكرهين . يعنى معاوية وأبيه أبا سفيان. إنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيكم أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ولما وقعت الواقعة كان أكثر الناس هما وكربا وراح يهتف ويصيح اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان . اللهم إنى لم أقتل ولم أمالى . اللهم العن قتلته عثمان وحينما حوصر منزل الخليفة عثمان بن عفان من قبل الثوار ومنعوا عنه الطعام والماء فحمل قربة الماء على كتفه وحاول الثوار منعه فصرخ فيهم قائلاً.

والله إن الكفار من الفرس والروم لا يفعلون فعلكم إنهم ليأسرون أعداءهم فيطعمونهم ويسقونهم وناوشهم وناوشوه حتى سقطت عمامته على الأرض وهو لا يبالى إلا بأن يبلغ بالماء الخليفة المجاسر ولقد فعل وأوصل قربة الماء إليه ودعا ولديه الحسن والحسين وأعطى كلا منهما سيفه وأمرهما أن يقفا حول سرير الخليفة وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار ويدرك أنه يقدم ولديه للموت لا محالة وحينما يخبرانه بمقتل الخليفة فقال لهما : إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه فكان عليكم أن تموتا دونه . وموقفه بعد مقتل الخليفة عثمان ومبايعته بالخلافة ودخوله الحرب مع معاوية كان موقف عدل وصدق وحدث ما حدث ومع ذلك لم يغدر ولم ينقض عهد أخذه على نفسه بل كان العدل سبيله وطريقه السوى . مع أنها كانت فتنة تدع الحليم حيران ـ فيقول عبد الله خباب بن الأرت حين لقيه الخوارج هو وزوجته فى طريق سفرهما فاعتقلوهما وسألوا عبد الله . أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من حديث رسول الله ﷺ . فقال لهم : سمعت أبى يقول سمعت رسول الله ﷺ : « يقول ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى والماشى خير من الساعى ».

وهذه كلمات الإمام الأخيرة قبل استشهاده بأيام نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة أما والله لوددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم فيقضى إلى رحمته من بينكم ولوددت أنى لم أراكم ولم أعرفكم فقد والله ملأتم صدرى غيظا وجرعتمونى الأمرين انفاسًا وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم هل كان فيهم رجل أشدَّ لها مراسًا وأطول مقاساة منى لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهأنذا اليوم قد عدوت الستين ولكن لا رأى لمن لا يُطاع .

فهذا حوار دار بينه وبين رسول الله ﷺ يكشف فيه الرسول ﷺ مكنون ما يحدث له ويستشرف فيه المستقبل الذى ينتظره فيسأله قائلاً : «يا علىَّ كيف أنت

إذا زهد الناس فى الآخرة ورغبوا فى الدنيا وأكلوا التراث أكلا لما وأحبوا المال حبًا جمًا واتخذوا دين الله دغلاً ومالوا دُولاً » فأجابه قائلاً إذا أتركهم لدنياهم وأذرهم وما اختاروا وأختار الله ورسوله والدار الآخرة وأصر على ذلك حتى ألحق بكم .

لقى الإمام ربه أخيرًا مصابًا بضربة سيف مسموم فى صلاة الفجر وحين حمل إلى داره وأحاط به من أحاط وقد أمسكوا بقاتله عبد الرحمن بن ملجم فنظر إليه وقال ـ أهو أنت لطالما أحسنت إليك ثم قال لبنيه ولأهله ـ أحسنو نزله . وأكرمو مثواه ـ فإن أعش فأنا أولى بدمه قصاصا أو عفوًا وإن أمت فالحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين . ولا تقتلوا بى سواه إن الله لا يُحب المعتدين . . انظر إلى عدله حتى مع قاتله والسبب فى وفاته فطلب من أبنائه وأهله بأن يحسنوا إليه وإن عاش فله وإليه الحق فى القصاص أو العفو ويطلب منهم ألا يتعدوا إلى غيره قاتله .

وهذه وصية حرى بكل مسلم أن يقرأها ويقف عندها لأنها خرجت من فم رجل طالما دافع عن الحق وعمل على أن يعيش العدل وإن كان يغضب الآخرين فنجده يدعو بنيه وعلى رأسهم الحسن رضى الله عنهم أجمعين وراح يُملى عليه وصيته قائلاً . . . أوصيكم بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول إن صلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام ـ الله ـ الله فى القرآن لا يسبقنكم إلى العمل سابق .

الله الله فى الفقراء والمساكين أشركوهم فى معاشكم . لا تخافن فى الله لومة لائم يكفكم من أرادكم ويعنى عليكم ـ لا تدعوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله تعالى . عليكم بالتواصل وإياكم والتدابر وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .

ها هو ذا يخرج إلى سوق الكوفة قبل أن يقضى أجله . وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه الحبيبة إليه عارضًا إياه للبيع وقائلا :

من يشترى سيفى هذا . فو الله لو كان معى ثمن إزار ما بعته لماذا كل هذا التقشف وبيت المال مملوء عن آخره . وللإجابة عن هذا أنه تعلم ذلك من القدوة التى طالما لم تغب عنه خاطره لحظة من نهار أو ليل والتى عبر عنها فقال فى رسول الله ﷺ إذا قبضت عنه أصرافها ووطئت لغيره أكنافها وفى نبى الله موسى كليم الله إذ يقول: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ووالله ما سأله إلا خبزًا يأكله.

وفى المسيح عيسى ابن مريم الذى كان يلبس الخشن ويأكل الجشب دابتّه رجلاه وخادمه يداه ثم يقول أأقنع من نفسى بأنه يقال أمير المؤمنين ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان والله لو شئت لكان لى من صفو هذا العمل ولباب هذا البر ، مناعم هذه الثياب ولكن هيهات أن يغلبنى الهوى فأبيت مبطانا وحولى بطون غرثى وأكبادُ حرثى .

ونجده يفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قصار لكنها كبار إذ يقول لو كان المال مالى لسوّيته بينهم فكيف والمال مال الله وهم عباد الله .

ثم يقول : إن الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بتخمة غنى .

وهذا ضرار بن ضمرة الكنانى يصف الإمام قائلا :

كان بعيد المدى شديد القوى . يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطلق الحكمة من لسانه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته . كان غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفيه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا يعطينا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه وكان والله مع قربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ولا

نبتدئه لعظمته وكان إذا تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم يعظم أهل المدينة ويقرب المساكين . لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين فكأنى أسمعه وهو يقول يا دنيا يا دنيا . يا دنيا إلى تعرضت أم إلى تشوقت هيهات هيهات غرى غيرى قد طلقك ثلاثًا لا رجعة فيها فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق هذه الكلمات القليلة تصف لنا أحواله وكيف كانت حياته .

معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز

العدل عند عمر بن العزيز وهذه بعض النماذج :

١ ـ روى أن زوجته فاطمة دخلت عليه يوما وهو جالس فى مصلاه واضعا خده على يده ودموعه تسيل على خديه فقالت : ما لك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأثير ، والشيخ الكبير ذى العيال الكثيرة والمال القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم محمد ﷺ فخشيت ألا يثبت لى حجة عند خصومته ، فرحمت نفسى ، فبكيت .

ومن أقواله الخالدة : رأيت دنيا يأكل بعضها بعضًا إن لى نفسًا تطواقة لا تنال شيئا إلا طاقت إلى ما هو أفضل منه؛ وكان شعاره فى هذا السلوك كلماته المأثورة عجبت لمؤمن يؤمن أن اللّٰه يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحسن الثواب ؟

٢ ـ كانت عمته صاحبة دالة على الخلفاء من بنى مروان وأمرائهم وكانت أسيرة (أى عزيزة ومحبوبة عند عمر) وموضع حبه العميق واحترامه الوثيق ، فحين ألغى كل مخصصات بنى مروان ألغى ما كان يصلها من بيت الإمارة ، فسارعت إليه وفوجئت به جالسا يتناول عشاءه مع أبنائه وسلمت العمة ، ثم جلست وراحت تحملق بعينها لا تكاد تصدق ما تراه لقد كان كل ما بين يديه من طعام خبز جاف وطبق عدس وملح ودارت بها الأرض أهذا عمر الذى كان يخوض فى النعيم خوضا وهو الخليفة المطاع يصير هذا طعامه ، ولم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء ثم قالت : جئتك فى حاجة لى ولكن لم أكد أراك حتى

رأيت أن أبدأ بك قبل نفسى . قال الخليفة : وما ذاك يا عمه ؟ قالت : لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا ؟ قال : لا أملك غيره ولو كان عندى لفعلت . قالت : إن عمك عبد الملك كان يجرى عَلَىَّ ما تعلم ، ثم كان أخوك الوليد فزادنى، ثم كان سليمان فزادنى ، ثم وليت أنت فقطعته عنى . فأجابها إن عمى عبد الملك وأخواى الوليد وسليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لى فأعطيكى ولكن أعطى مالى إن شئت ؟ قالت : وما مالك يا أمير المؤمنين قال : عطائى مائة دينار فى العام قالت : وما يبلغ منى عطاؤك ثم انصرفت عنه يائسة وهى التى كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ، ويسرعون إلى هواها .

٣ ـ لقد قال له بعض أصفيائه ناصحا حين جرد الأمراء الأمويين من كل ثروتهم وممتلكاتهم ، ودفع بها إلى بيت المال قال : يا أمير المؤمنين ألا تخاف غوائل قومك ؟ فإذا الحليم الأواب الهادى السمت الباكى العين ينتفض كالأسد ، وإذا بالكلمات تخرج من فمه كزئير الأسد أبيوم سوى يوم القيامة تخوفنى فكل خوف أتقيه دون خوف يوم القيامة وكان دائم الدعاء بقوله : اللهم ارضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت ، وحين طلب منه ذات يوم الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فكان جوبه إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد جائعة فإنها أولى به من الكعبة .

٤ ـ حين كتب إليه واليه على خراسان يستأذنه فى أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلا : إنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فكان ردة التقى الحازم بل يصلحهم العدل ، والحق فابسط ذلك فيهم ، واعلم أن لا يصلح عمل المفسدين .

٥ ـ وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنها بلؤلؤتين جميلتين فترسل إلى أبيها أن يشترى لها مثلها ويدعو أمير المؤمنين خادمه ويأمره أن يجىء بجمرتين ملتهبتين ثم يطلب من ابنته فيقول لها : إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى

أذنيك جئتك بلؤلؤتين كهذه .

كم تساوى هاتين اللؤلؤتين مائة أو ألف أو عشرة آلاف دينار أو درهم . هل هذا المبلغ الزهيد يؤرق الخزانة العامة أو بيت مال لدولة عظمى كالدولة الإسلامية آنذاك ؟ إنه العدل الذى يساوى بين أغلى الأشياء وأرخصها .

٦ ـ روى أنه أرسل خادمه ذات يوم يسخن ماء لوضوئه فى يوم شتاء زمهرير ويعود الخادم مسرعا بالماء الدافئ ، فيسأله الخليفة أين أدفأت الماء بهذه السرعة ؟ فيجيب الخادم فى مطابخ المسلمين ، وكان عمر قد توسع فى إنشاء مطابخ عامة للناس ينفق عليها من بيت المال ، فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يمس الماء جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل من الماء .

٧ ـ وهذه واقعة أخرى ، وتلك الواقعة متواترة بين الناس فقد روى أنه كان حين يباشر أمور الدولة ليلا على مصباح يأخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له أمر طارئ ولو كان لايستغرق سوى لحظات فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويوقد شمعته أو مصباحه حتى ينتهى ذلك الطارئ .

لعلنا نتسأل ما الذى يدفع حاكم دولة عظمى بل إمبراطورية كبيرة أن يأخذ الحذر من المال العام ، ويحافظ عليه حتى من أبسط الأشياء كالجلوس فى نور المصباح إنه العدل الذى يعصم صاحبه ويمنعه من الوقوع فى زلل .

٨ ـ وهذا موقف آخر من مواقف عدلة التى تكاد لا تنتهى فكان الوليد بن عبد الملك قد هدم جزءًا كبيرًا من كنيسة يوحنا ليقيم عليه امتداد المسجد الأموى المشيد ، وحينا ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة شكى إلى نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم ترى ماذا يصنع أمير المؤمنين ، وإن الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا ؟ وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى هذا الموقف أن يعطى تعويضا سخيا أو أرضا بديله لكن ابن عبد العزيز يتعامل مع الحق والعدل بأسلوب

مختلف عن أساليبنا فأصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة ، ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قرارة ، ولكنه أصدر أمرًا جديدًا حدد فيه اليوم والساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم ، ولم يجد العلماء سبيلا لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضيهم ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم ، ثم يذهب وفد من الفرقين لإبلاغ الاتفاق للخليفة فيحمد الله عليه ويقره . أرأينا عدلا مثل هذا ، ولقد صدق إمبراطور الروم وكان خصما عنيدًا للدولة الإسلامية لا يكاد يبلغه نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاءً مرًا أذهل حاشيته وأساقفته . فسألوه فى ذلك. فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ما قيل فى تأبينه أمير المؤمنين فقال : والله مات اليوم ملك عدل ليس لعدله مثيل والحق ما شهدت به الأعداء.

٩ - وهذا الخليفة العادل لن تفلت من عدله ورحمته شاردة ولا واردة ، فيقول ابن عبد الحكم الذى يروى لنا مسافة هذه الواقعة : حمل إليه البريد ذات يوم رسالة من الجيزة بمصر أما صاحبة الرسالة فاسمها فرتونة السوداء تشكو لأمير المؤمنين أن لها حائط متهدم بدارها يتصوره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة الخلافة بالشام ، فيكتب إلى واليه على مصر أيوب بن شرحبيل هذا الخطاب من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أيوب سلام الله عليكم أما بعد فإن فرتونة السوداء كتبت إلى تشكو قصر حائطها ، وإن دجاجها يُسْرَق منها ، وتسأل تحصينه فإذا جاءك كتابى هذا فاركب بنفسك وحصنه لها ، ويرسل إليها خطاب آخر يقول فيه: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونه السوداء سلام الله عليك أما بعد فقد بلغنى كتابك وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقُتحم عليك ويُسرَق دجاجك ، وقد كتبت الى أيوب بن شرحبيل آمرة أن يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين إن شاء الله .

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عنها عدة أيام حتى وجدها فإذا هى امرأة فقيرة مسكينة فأعلى لها حائطها .

بل إن عدله ورحمته وسعت كل شىء حتى شملت الإنسان والحيوان فقد روى أنه يأتيه يوم رسالتان كبيرتان مملوءتان من رطب الأردن ، فيسأل ما هذا ؟ فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين ، ويعود ويسأل وعلام جىء به ؟ فيقال له : على دواب البريد ، فيهز رأسه ويقول : لقد حملتموها فوق طاقتها فبيعوا الرطب واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التى حملته .

١٠ ـ روى أنه وقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بنى أمية حول حقوق يرونها لأنفسهم ويقول أحدهم للخليفة : سآتيك بصك الوليد ، وبكلمات حازمة يقول عمر أبا لمصحف ستجىء ؟ ليس بينى وبينكم إلا العدل والحق وحده .

مواقف وأقوال :

روى أن عمر بن عبد العزيز . خطب الناس يومًا وقد خنقته العبرة أيها الناس أصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم وأصلحوا أسراركم يصلح لكم علانيتكم والله إن عبدًا ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات إنه لمعرف له فى الموت [أى لا منى ولا مفر له من الموت] كم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر لكم من النقلة بينما ابن آدم فى الدنيا ينافس قرير العين فيها يانع إذ دعاه الله بقدره ورماه بسهم حتفه فسيله آثار دنياه وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر تسر قليلا وتحزن طويلا .

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله ﷺ فى النوم وهو يقول ادن يا عمر فدنوت حتى خشيت أن أصيبه فقال إذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين فإذا كهلان قد اكتنفاه فقلت من هذين ؟ قال هذا أبو بكر هذا عمر .

بلغ عمر بن عبد العزيز أن أبى سلام الأسود يحدث عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ فبعث إليه فأحضره على البريد وقال له كالمتوجع له يا أبا سلام ما أردنا المشقة عليك ولكن أردت أن تشافهنى بالحديث مشافهة فقال سمعت ثوبان يقول قال رسول الله ﷺ : «حوضى ما بين عدن إلى عمان ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا وأول الناس ورودًا عليه فقراء المهاجرين الشعث رؤوسًا الدنس ثيابًا الذين لا ينكحون المنعمات ولا تقع لهم السرد » فقال عمر لكن نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك فلا جرم أغتسل رأسى حتى يشعث ولا ألقى ثوبى حتى يتسخ.

يقول رجاء بن حيوة سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فغش السراج [أى كاد أن يُطفئ] فقلت يا أمير المؤمنين ألا أنبه هذا الغلام يصلحه فقال لا دعه ينام لا أحب أن أجمع عليه عملين فقلت أفلا أقوم أصلحه فقال ليس من المروءة استخدام الضيف . ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زيتا ثم جلس وقال أكثروا ذكر النعم فإن ذكرها شكرها وقال إنه ليمنعنى من كثرة ذكرها مخافة المباهاة .

ذات يومٍ بلغه أن رجلا من أصحابه توفى فجاء إلى أهله ليعذيهن . فيه فصرخوا فى وجهه بالبكاء عليه فقال مه . إن صاحبكم لم يكن يرزقكم وإن الذى يرزقكم حتى لا يموت وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئًا من حفركم وإنما سد حفرة نفسه ألا إنه لكل امرئ منكم حفرة لا بد وأن يسدها إن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالفراق وعلى أهلها بالفناء وما امتلأت دار خير إلا امتلأت عبرة ولا اجتمعوا إلا تفرقوا حتى يكون الله هو الذى يرث الأرض ومن عليها فمن كان منكم باكيا فليبك على نفسه فإن الذى صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غدًا .

قال ميمون بن مهران خرجت مع عمر إلى القبور فقال لى يا أبا أيوب هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم أما تراهم

صرعى قد خلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء ثم حتى غشى عليه ثم أفاق فقال انطلقوا بنا فوالله لا علم أحد أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله ينتظر ثواب الله .

وخرج يوما فى جنازة فلما دفنت قال لأصحابه قفوا حتى أزور الأحبة فأتاهم فجعل يبكى ويدعوه إن هتف به التراب فقال يا عمر ألا تسألنى . ما فعلت فى الأحبة قال قلت وما فعلت بهم قال مزقت الأكفان وأكلت اللحوم وشدخت المقلتين وأكلت الحدقتين ونزعت الكفين من الساعدين والساعدين من العضدين والعضدين من المنكبين والمنكبين من الصلب والقدمين من الساقين من الفخذين والفخذين من الورك من الصلب فلما أراد أن يذهب قال له يا عمر أدلك على أكفان لا تبلى قال وما هى قال تقوى الله والعمل الصالح .

وقال مرة لرجل من جلسائه لقد أرقت الليلة مفكرًا قال وفيم يا أمير المؤمنين قال فى القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث فى قبره وما صار إليه لاستوحشه من قربه بعد طول الأنس منك بناحية ولرأيت بيته تجول فيه الهوام وتصرف فيه الديدان ويجرى فيه الصديد مع تغير الريح وعلى الأكفان يعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا.

قال على بن زيد ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز .

وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبد الملك قالت انتبه عمر ذات ليلة وهو يقول لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة فقلت أخبرنى بها فقال حتى نصبح فلما صلى بالمسلمين دخل فسألته فقال رأيت كأنى دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة فخرج منه خارج فنادى أين محمد ابن عبد الله أين رسول الله إذ أقبل رسول الله ﷺ . حتى دخل القصر ثم خرج آخر فنادى أين أبى بكر الصديق فدخل ثم خرج آخر فقال أين عمر بن الخطاب ؟

فأقبل فدخل ثم خرج آخر أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل ثم خرج آخر فنادى أين على بن أبى طالب فأقبل فدخل ثم خرج فنادى فقال أين عمر بن عبد العزيز فقمت فدخلت فجلست إلى جانب أبى عمر بن الخطاب وهو عن يسار رسول الله ﷺ وأبو بكر عن يمينه وبينه وبين رسول الله ﷺ . رجل فقلت لأبى من هذا ؟ قال : هذا عيسى ابن مريم - عليه السلام - ثم سمعت هاتفًا يهتف بينى وبينه نورًا لا أراه وهو يقول يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه واثبت على ما أنت عليه ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت فالتفت فإذا عثمان بن عفان خارج من القصر وهو يقول الحمد لله الذى نصرنى ربى وإذا على فى إثره وهو يقول الحمد لله الذى غفر لى ربى .

يقول رجاء بن حيوة لما توفى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده فى الخلافة أتاه عمر بن الوليد فقال ليزيد يا أمير المؤمنين إن هذا المرائى [يعنى عمر بن عبد العزيز] قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين فى بيته فى داره مملوءين وهما مقفولان على ذلك الدر والجوهر فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة امرأة عمر بلغنى أن عمر خلف جوهرًا ودرًا فى بيتين مقفولين فأرسلت إليه يا أخى ما ترك عمر من سيد ولا ولد إلا ما فى هذا المنديل وأرسلت إليه به فحله فوجد فيه قميصا غليظا مرقوعًا ورداء مسبا وجبة محشوة غليظة واهية البطانة فقال يزيد للرسول قل لها ليس عن هذا أسأل ولا هذا أريد إنما أسأل عما فى البيتين فأرسلت تقول له والذى فجعنى بأمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولى الخلافة لعلمى بكراهته ذلك وهذه مفاتيحهما فتعالى فحول ما فيهما بيت مالك .

فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار ففتح أحد البيتين فإذا فيه كرسى من أدم وأربع أجرات مبسوطات عند الكرسى وقمقم فقال عمر بن الوليد استغفر الله . ثم فتح إليه الثانى فوجد فيه مسجدًا مفروشا بالحصا وسلسلة معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الإنسان رأسه منها إلى أن يبلغ

العنق كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها فى رقبته وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام فبكى يزيد ومن معه وقال يرحمك الله يا أخى إن كنت لنقى السريـرة فى العلانية وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول أستغفر الله إنما قلت ما قيل لى .

١١ ـ وها هو ذا أحد المقربين إليه الأثرين لديه عنبسة بن سعيد يذهب إليه يوم سأله حاجة لنفسه فكان جواب الخليفة له قائلاً : يا عنبسة إن يكن مالك الذى عندك حلال فهو كافيك ، وإن يك حراما فلا تضيف إليه حرامًا جديدًا . خبرنى يا عنبسة أمحتاج أنت ؟ قال : لا . قال :أفعليك دين ؟ قال : لا. قال : إذا فكيف تطمع فى .أن أعمد إلى مال الله فأعطيك فى غير حاجة وأدع فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارما لأديت عنك غرمك أو محتاجًا لأمرت لك بما يصلح شأنك ، فليكن لك فى ملك غناء واتق الله وانظر من أين جمعته ؟ وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع المحاسبين .

١٢ ـ لقد عاد يوما إلى دارة بعد صلاة العشاء ولمح بناته الصغار فسلم عليهن وبدلا من أن يسعين نحوه بالتحية كعادتهن رآهن يغطين أفواههن وتبادرن إلى الباب فسأل ما شأنهن ؟ فأجيب بأنهن لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل فكرهن أن يشم من أفواههن رائحة البصل فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن : يا بناتى ما ينفعكن أن تعشينا الألوان أطيب من الطعام ، ثم ذهب بأبيكن إلى النار . إذا كان العدل نبع من سيد المرسلين ﷺ وصار على نهجه خلفاء الراشدين وصحابته الأجلاء الأكرمين فإن العدل لم يقف على هؤلاء فقط بل هؤلاء هم مصدر الشعاع والنور لمن يأتوا بعدهم لأنه سنة الله فى خلقه إلى إن يرث الله الأرض ومن عليها وهذا نموذج جعل العدل مطيته والإحسان سجيته إنه .

العدل عند عمر بن عبد العزيز :

ومن المعلوم أن معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز . فى أروع تألقاته وتأنقاته شبابه ورجولته وفى الأيام التى كان يخوض خلالها فى النعيم خوضًا لم يُعرف عنه قط أنه ارتكب إثما أو اجترم خطيئة من تلك التى تُشكل رد فعل لهوى مكبوت أو رغبة مكظومة . وإن كان حساده لم ينقموا عليه شىء سوى متابعة فى النعمة والاختيال فى المشية ولكن الكامل من عدت هفواته لأنها لا تعد إلا من قلة . فى سن الخامسة والعشرين اختاره الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ليكون والى المدينة وحاكمها وتهللت المدينة لهذا الاختيار . لأن هذا الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن . وراح يذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس وفى العام الثانى من إمارته حدثت ظاهرة يكتفى المؤرخون بمجرد تسجيلها على حين نرى فيها سببا وثيقا من أسباب التطور بل الانقلاب الروحى ـ الذى سيغمر شخصيته بعد حين ففى ذلك العام ولاه الخليفة إمارة الحج ولم يكد موكبه بعد حين يبلغ مكة حتى ألفى أهلها فى قحط وعسر ومشقة فما كان منه إلا أن دعا صفوة العلماء والصالحين ومن شاء من عامة الناس أن يتبعهم ثم خرج بهم إلى فضاء مكة ثم وقف ابن عبد العزيز . يدعو الله ويضرع إليه بعد أن صلى بهم صلاة الاستسقاء فإذا شىء يشبه المعجزة إذ لم يغادر مكانه حتى هطل المطر على غير موعد وفى غير ميقاته ولم يصدق الناس أبصارهم التى راحت تُحدق فى سماء زرقاء ناصعة صافية ليس فيها مُزعة سحاب وشهدت مكة فى عامها ذاك خصوبة نادرة وبنى فى مدة ولايته هذه مسجد النبى ﷺ ـ ووسعه عن أمر الوليد له بذلك فدخل فيه قبر النبى ﷺ ـ وقد كان فى هذه المدة من أحسن الناس معاشرة وأعدلهم سيرة .

وروى أن زوجته فاطمة دخلت يومًا عليه وهو جالس فى مصلاه واضعا خده على يده ودموعة تسيل على خديه فقلت مالك . فقال ويحك يا فاطمة قد

وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود واليتيم المكسور والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور والغريب والأسير والشيخ الكبير وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة وأن خصمى دونهم محمد ﷺ . فخشيت أن لا يثبت لى حجة عند خصومته فرحمته نفسى فبكيت . ومن أقواله الخالدة أرأيت دنيا يأكل بعضها بعض . إن لى نفس تواقة لا تنال شيئًا إلا طاقت إلى ما هو أفضل منه . وكان شعاره فى هذا السلوك كلماته المأثورة عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويُخلق عليه كيف يحبس ماله عنه عظيم الأجر وحسن الثواب .

ولقد وصفه مؤرخو سيرته فقالوا : كان من أعطى الناس للجزيل ويقول عنه أنس بن مالك رضى الله عنه ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله من هذا الرجل ومما يروا أن الخليفة سليمان بن عبد الملك. اصطحب عمر بن عبد العزيز فى رحلة للحج وفى الطريق فتحت السماء أبوابها بماء منهمر ففزع سليمان وأرعبه السيل الكاسح ونظر فإذا ابن عبد العزيز يضحك فسأله سليمان المثل هذا يضحك الناس ؟ فأجابه عمر يا أمير المؤمنين هذا فى حين رحمته فكيف به فى حين غضبه والآن لننظر مرة أخرى ها هو ذا فى اليوم التالى يتهيأ آخذا طريقه إلى السرادق فى الذى جرت العادة بإقامته حيث يجرى فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه ولا يكاد يضع قدميه على الطريق حتى يرى موكبًا ضخما من الجياد المطهمة يتوسطها فرس زينت كالعروس يمتطى الخليفة ظهرها الباذخ وفجاة تأخذه الرَّجفة ويسأل مستنكرًا ما هذه فيجبونه هذه جياد لم تُركب قط تُعدُ لموكب خليفة جديد فنادى عمر يا مُزاحم ضم هذه إلى بيت المال . ويمضى على قدميه حتى يبلغ السرادق فإذا هو فتنة ولا كإيوان كسرى فتعاوده الرَّجفة ويسأل ما هذا فيجبونه إنه السرادق الذى يُعد لاستقبال الخليفة الجديد فنادى يا مُزاحم ضُم هذا إلى بيت المال ويدعو بحصير فيفرشه على

الأرض ثم يجلس فوقه فى غبطة قديس ثم يُجاء بالأردية المزركشة الفاخرة فيسأل ما هذه فيقولون إنها ثياب الخلافة يتحلى بها كل خليفة جديد فنادى يا مُزاحم هذه أيضا ضمها إلى بيت المال ثم تعرض عليه الجوارى يختار منهن وصفات قصره وهنا ينهض فزعًا ويقبل عليهن واحدة واحدة من أنتِ ولمن كُنت وما بلدك حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعًا نادى يا مُزاحم تول أمرهن جميعًا وأرجع كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها فروعة العدل جعلت معجزة الإسلام يتعفف عنه هذا كله ويؤثر السلامة والعفة ، وكيف لا وهو حفيد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه . لقد حرص أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على أن يدرك الناس أنه لا يأتهم بجديد من المبادئ والنظم . فكل ذلك فى قرآنهم ودينهم وتراث الرعيل الأول الصالح ـ تقول زوجته فاطمة ـ لقد كان يذكر الله فى فراشه فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف حتى أقول ليُصبحن الناس ولا خليفة لهم وكان يبدو وكأن النار لم تخلق إلا له ويقول عنه ميمون بن مهران رأيته مرة يبكى فإذا هو يبكى دمًا ولقد أصبح يستحى من ربه أن يرى فى فمه لقمة شهية أو أن يرى على جسده ثوبًا ناعمًا بل أن ترى على شفتيه ضحكة مجرد ضحكة وولى الخلافة لن يرى ضحكة . والرجل الذى كان قبل الخلافة بدقائق متأنقًا فوَّاح العبير قد جعلته المسئولية فى لمح البصر إنسانًا آخر أشعث أغبر تمامًا مثل جده عمر بن الخطاب لو لقيه من لا يعرفه من الناس ليسأله أين أجد أمير المؤمنين لقد رفض رفضا باتا ومطلقًا كل أطاييب الحياة ومناعمها تقول زوجته فاطمة وقد سئلت عن عبادته فقالت والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صيامًا ولكن والله ما رأيت أحد أخوف الله منه بل إن الناس أنفسهم غائصون معه بدرجة قربهم منه مما جعل قرابته وصداقته تتحول إلى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء ولقد عبر عنه هذه الحقيقة أجمل تعبير خادم له رأه أمير المؤمنين يسحب برذونه فسأله كيف حال الناس . فأجابه .

كل الناس فى راحة إلا أنت وأنا وهذا البرذون ولقد انعكس استغراقه فى

مسئولياته على نفسه وعلى أهله وعلى كل الذين حوله انعكاسًا مجيدًا فهذا محمد ابن كعب القُرظى يتحدث فلنستمع إليه فيقول دخلتُ على عمر بن عبد العزيز بعد استخلافه وقد نحل جسمه وعفا شعره وتغير لونه وكان عهدنا به فى المدينة وهو أمير عليها حسن الجسم ممتلئ البضعة فجعلت انظر إليه لأصرف بصرى عنه فقال لى : يابن كعب مالكَ تنظر إلى نظرًا ما كنت تنظره إلى من قبل قلت . لعجبى يا أمير المؤمنين . قال وبما عجبُك . قلت : مما نحل من جسمك وعفا من شعرك وتغير من لونك . أين ذلك اللون النضير والشعر الحسن والبدن الريان فقال لى إنك إذن لأشدُ عجبا من أمرى وإنكارًا لى لو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى وقد وقعت عيناى على وجنتى وسكن الدود منخرى وفمى ثم راح يبكى وكانت تقول زوجته : يا ليت كان يننا وبين الخلافة بعد المشرقين فوالله ما رأينا سرورًا مُذ دخلت علينا . وهذا موقف آخر وليس بأخير من مواقف العدل والحزم فقد وقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بنى أمية حول حقوق يرونها لأنفسهم ويقول أحدهم للخليفة سآتيك بصك الوليد ـ وفى كلمات حازمة يقول عمر بالمصحف ستجىء لقد صار العدل والحق وحده هو الفيصل والحكم فلا صكوك ولا مواثيق إلا صكوك الحق والعدل .

كانت عمته أم عمرو بنت مروان صاحبة دالة على الخلفاء من بنى مروان وأمرائهم وكانت أثيرة لدى عمر بن عبد العزيز وموضع حبه العميق واحترامه الوثيق وحين ألغى كل مخصصات بنى مروان ألغى مخصصاتها أيضًا فسارعت إليه وفوجئت به جالسًا يتناول طعام عشائه وسلمت العمة ثم جلست وراحت تُحملق بعينها لا تكاد تصدق ما تراه لقد كان كل ما بين يديه من طعام خبز جاف وطبق عدس وملح ودارت بها الأرض أهذا عمر الذى كان يخوض فى النعيم خوضًا لأنه وهو الخليفة المطاع يصير هذا طعامه ولم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء ثم قالت لقد جئتك ، فى حاجة لى ولكن لم أكد أراك حتى رأيت أن أبديك قبل نفسى قال الخليفة وما ذاك يا عمة قالت لو اتخذت لك طعامًا ألين من هذا قال:

لا أملك غيره ياعمة ولو كان عندى لفعلت قالت إن عمك عبد الملك كان يجرى على ما تعلم ثم كان أخوك الوليد فزادنى ثم كان سليمان فزادنى ثم ولية أنت فقطعته عنى . فأجابها : يا عمة إن عمى عبد الملك وأخواى الوليد وسليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذلك المال لى فأعطيكى ولكنى أعطيك مالى إن شئت قالت وما مالك يا أمير المؤمنين . قال عطائى مائتا دينار فى العام قالت وما يبلغ منى عطاؤك . ثم انصرفت عنه يائسة وهى التى كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ويسارعون إلى هواها .

أبعد هذا أبقيت هناك شفاعة لشافع أو مطمع لطامع إنه العدل الذى لا يفرق صاحبه بين قريب أو غريب لقد قال له بعض أصفيائه ناصحًا حين جرد الأمراء الأمويين من كل شرواتهم وممتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال قال له : يا أمير المؤمنين ألا تخاف غوائل قومك . فإذا الحليم الأواب الهادئ السمت الباكى العين ينتفض كالأسد وإذا بالكلمات تخرج من فمه كزئير الأسد أبيوم سوى يوم القيامة تخوفوننى فكل خوف أتقيه دون يوم القيامة لأوقيته . هذا كان دئم الدعاء بهذا القول اللهم رضّنى بقضائك . وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرته ولا تأخير ما عجلته .

وحين طلب منه ذات يوم الموافقه على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة فيكون جوابه إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد جائعة فإنها أولى به من الكعبة وحين كتب إليه واليه على خرسان يستأذنه فى أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلا له فى رسالته . إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط فكان رده التقى الحازم . كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم واعلم أن الله لا يُصلح عمل المفسدين .

لقد وضع أمير المؤمنين فيه العدل وبسطه على الأرض بسطا حتى كاد العدل يمشى على قدمين . فكان دخله قبل أن يلى الخلافة أربعون ألف دينار فتنازل عنه كل هذا وعن أملاكه من أبيه حتى عن قطعة أرض بخيبر قد ورثها عن أبيه ولكن

تسأل من أين أتى بها أبيه أنه أخذها باعتبار أنه أمير أموى لأن هذه القطعة كانت مما أفاءه الله على رسوله فجعل الرسول ﷺ حصيلة هذه القطعة تنفق فى سبيل الله وظل الأمر على ذلك حتى صارت الخلافة لمعاوية فجعلها لمروان وقد وهبها مروان إلى ابنه عبد العزيز فصارت إلى عمر بن عبد العزيز فأعادها إلى أصلها . ولقد اكتفى فى دنياه بدخل قطعة أرض اشتراها بحر ماله كانت هذه القطعة تدر عليه دخلاً مائتا دينار فى العام كان يعش بهما هو وأسرته .

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسئولية والقدوة وهذا سورة أخرى وإن كانت الأمثلة لا تتقضى ولا تنتهى فقد روى أنه اقترب يومًا من زوجته فاطمة وقال لها إنك لتعلمين من أين أتى لك أبوك ـ عبد الملك بن مروان ـ بهذه الجواهر فهل لك أن أجعلها فى تبوت أضعه فى أقصى بيت المال وأنفق ما دونه فإن خلصتُ إليه أنفقته فى حاجات المسلمين ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذه الحلى وهذه الجواهر وهى عزيزة عليها لأنها هدية أبيها لها فى عُرسها وزفافها ولكنها لا تجادل زوجها القديس حتى فى هذه وتجرد منه نحرها ومعصمها فى غبطة ورضًا .

وبنا ندخل إلى منزل معجزة الإسلام ، عمر بن عبد العزيز فقد ترك قصور الخلافة ويأوى إلى دار متواضعة ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار إلا لمامًا ويأخذ على نفسه العهد إلا يستحدث لنفسه شيئًا من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه يحدث ابن عياش فيقول كانه لعمر مرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته فتهدمت إحدى الرقاتين فأعاد بناءها رجل من أهله فلما جاء عمر ووجدها سأل من صنع هذا قالوا فلان قال إلىَّ به فلما جاء قال له عمر ويحك أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة . والله لولا أنه يكون هدمى لها إفسادًا بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه .

ويدخل عليه فى داره أحد خاصته المقربين فيجده بركن منها تغطيه الشمس وقد دثر جسمه كله فى إزار وحسبه الزائر مريضا فسأله ما باله فأجاب أمير

المؤمنين . لا شيء غير أنى أنتظر ثيابى حتى تجف . قال الزائر وما ثيابك يا أمير المؤمنين قال عمر قميص ورداء وإزار . قال صاحبه : ألا تتخذ قميصًا آخر ورداء وإزارًا . قال . الخليفة كان لى ثم بليت قال الزائر . ألا تتخذ سواها وهنا شرقت كلماته بدموعه وراح يجهش بالبكاء مسندًا جبهته على راحتيه مُرددًا آية القرآن الكريم : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص: ٨٣] .

أى إخبات أى إيمان أى عدل كان هذا إنه أشبه الناس بعدل العظيم عمر بن الخطاب رضوان الله عليه .

وناداه يوما رجلا من المسلمين قائلاً له : يا خليفة الله فى أرضه فأخذته الرعدة الصالحة وصاح فى الرجل مه - إنى لما وُلدت أسمانى أهلى عمر فلو ناديتنى يا عمر أجبتك - انظر إلى من عرف العدل فاتخذه منهج حياة - ولما كبرت اخترت لنفسى كنية أبا حفص لو ناديتنى يا أبا حفص أجبتك - ولما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين . فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين أجبتك ، وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك إنما خلفاء لله فى الأرض رسله وأنبياؤه ومنع الدعاء له فوق المنبر فى خطبة الجمعة وأرسل بذلك كتابًا حازمًا إلى ولاته فى جميع الأقاليم قائلاً فيه مُروهم فليصلوا على النبى عليه السلام ولكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات وليستنصروا الله . وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين وليدعوا ما سوى ذلك .

حدث يومًا أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة فتنادوا واجتمعوا وقرروا أن يوفدوا إليه صديقا له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء فكان جوابه لهذا الصديق . والله لقد ندمت على الذى أعطيته إياهم وإنى لأعلم أن فى المسلمين من هو أحق به وأحوج إليه منهم وعاد مبعوثهم إليهم يقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ويقول لهم يا بنى أمية لا تلوموا إلا أنفسكم فقد عمدتم إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان -

فوجدتموه حفيدة عمر بن الخطاب فجائتكم بعمر بن الخطاب ملفوفًا فى ثياب عمر ابن عبد العزيز فلا تلوموا أنفسكم .

وهذه طائفة من أقوال معجزة الإسلام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

وإن المتفكر فى هذه الأقوال ليجد أن كل حرف من هذه الكلمات ليجد أنها تدعوا إلى العدل والبعد عن الظلم فتجده يرسل وصاياه ورسائله وصية من بعد وصية وكتاب من وراء كتاب فلنقرأ واحدًا من هذه الكتب فنجده يقول أما بعد . . فإن من ابتلى من أمر السلطان بشىء فقد ابتلى بلية عظيمة فنسأل الله عافيته وعونه وإنى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك عند الذى ترجو به النجاة من ربك تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه قبل أن يتولى صلاحك غيركُ ولا يمنعك من ذلك قول الناس وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحًا فى دينهم وإعراضهم وستر كل عوراتهم واملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت وإذا غضبت.

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهًا لوجه أمام مسئولياتهم فنجده يكتب للولاة قائلاً إنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا ألا إن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ثم يكتب للناس فى شتى الأقاليم قائلاً : أى عامل من عمالى رغب عنه الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم وقد صيرت أمره إليكم حتى يُراجع الحق وهو ذميم ويرسل إلى أحد ولاته قائلاً : قد كثر شكواك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت .

ولم يقف أمره على هذا . بل أعد جائزة لمن يرفع مظلمة إليه ـ فنقرأ هذا المنشور الذى أمر أن يذاع فى المجامع والمواسم والمحافل . . فأيما رجل قدم علينا فى مظلمة نردها أو أمر يحيى الله به حقًا أو يميت باطلاً أو يجىء بخير فله منا ما بين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار بقدر ما يتكافئه فى ذلك من طول السفر وبُعد الشقة . أليس عجبًا هذا الذى نقرأ ونرى . . ولكم كان صادقًا حين قال : لو وكلنى الله إلى نفسى لكنت كغيره ومن عدله وسمته راح يضرب المثل الأسمى

والقدوة الباهرة فى تقبل النقد هو الذى لم يعرف الناس له خلال خلافته خطأ واحدًا يستحق النقد والتفنيد فكانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له . إلى أين ؟ ولماذا ؟ هنالك يربت على كتفه ويُدنيه منه ويقول لمن وجه له ذلك . . زدنى يا أخى جزاك الله خيرًا إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقة حتى يكون أحدهما طفلاً : فقد روى أن وفد قدم عليه يوما من المدينة ويقدم من بينهم غلام صغير يتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم فتملاه أمير المؤمنين وقال له يا بنى . . دع القول لمن هو أسن منك ويبدو أن الغلام العربى الأصيل كان يحمل نبوغًا مبكرًا فقد أجاب الخليفة من فوره . .

يا أمير المؤمنين المرء بأصغريه قلبه ولسانه . ولو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك وفجأة تنسال دموع الغبطة والفرح من عينى القديس . ويهتف بالغلام صدقت . صدقت . عظنى يا بُنى وليس الأمر واقفا على هذا بل إن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يومًا شاهرًا سيفه ينسبه ويشتم أمير المؤمنين على ملأ من الناس وعلى مسمع من المدينة وحاكمها فيعتقله الوالى ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ويقول فى كتابه لقد هممتُ أن أقتله ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فورًا أما والله لو قتلته لقتلتك به .

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجلاً من عامة الناس رافعًا عقيدته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم فما كان جوابه فلم يزد على أن يقول لهذا الرجل لعلك أردت أن يستفذنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك اليوم فى الدنيا ما تتقاضاه منى غدًا عند الله عز وجل . ولكن لا قم عفا الله عنك .

ومن أقواله العظيمة : من أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس أو فليفارقنا . يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها . . ويعنا على الخير بجهده . . ويدلنا على مالا نهتدى إليه من الخير ولا يغتنمه عندنا أحد . . ولا يعرض لما لا يعنيه . . فانفض عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الزهاد والفقهاء . . . لقد وضع الكذب ورفع الصدق ودحر الظلم وأظهر الحق .

وهذه سورة رائعة من عدله الذى لا ينقضى :

فقد روى أنه إبان حكمه تحركت بعض الفرق التى كانت معلنة العصيان والتمرد المسلح قبل خلافته مستأنفة تمردها المسلح فأرسل إلى زعيمها هذا الكتاب أما بعد فقد بلغنى أنك خرجت غضبًا لله ولرسوله ولست أولى بذلك منى فهلم أناظرك فإن يكن الحق معنا تدخل فيه وإن يكن الحق معك نراجع أنفسنا وننظر فى أمرنا. ويقرأ الزعيم الثائر هذه الكلمات فيجعل من نفسه ويلقى سلاحه ويرسل مبعوثين إلى عاصمة الخلافة يجريان مع الخليفة حوارًا حول ما بينهما من قضايا وخلاف ويجرى الحوار بينهما رائعًا صادقا تتجلى خلاله موهبة ابن عبد العزيز فى رؤية الحقيقة وتوجيه المنطق وإملاق الأفئدة والعقول ثم تكون العاقبة أن تلقى تلك الفرقة المتمردة سلاحها من بعد أن تبين لها أنهم فى عصر رجل يخجل الشيطان نفسه من أن يشغب عليه أو يتحداه .

ولم تكن هذه الواقعة هى الوحيدة الفريدة منه . بل جاءه خبر من والى الموصل بأن فرقة من الخوارج يقال لها الحرورية يسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم ويكتب إليه حاكم الموصل يستأذنه فى قمعهم وإسكاتهم فماذا كان جواب هذا الرجل العادل قال لواليه . . إذا رأو أن يسيحوا فى البلاد فى غير أذى لأهل الذمة . . . وفى غير أذى للأمة فليذهبوا حيث شاؤوا . . . وإن نالوا أحدا من المسلمين أو من أهل الذمة بسوء فحاكمهم إلى الله عز وجل . بالله ما أعدله وما أروعه . أما بعد هذا العدل عدلا .

وهذا نموذج آخر يبهر ذوى البصائر والعقول فكان يقول إنما أنا حجيج المسلمون فى أموالهم .

إن عدله وقسطه من أموال الأمة لعجب ثم عجيب وإن لها فى فؤاده الذكى التقى لحرمة تتناهى حرمة الإيمان ذاته وحرمة التوحيد .

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التى كانت دار الإمارة تضاء بها

ويُضاء بها للأمير وهو فى طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر فيجيبه الخليفة بكتابه هذا لقد عهدتُك يا ابن حزم قبل أن تكون واليًا تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ولعمرى لأنت يومئذ خير منك اليوم ولقد كان فى فتائل أهلك ما يغنيك .

ويكتب إليه وال آخر يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة فيجبه الخليفة أيضًا بقوله : إذا جاءك كتابى هذا فأرق القلم واجمع الحطب واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الأولى فإنه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر بينه ما لهم هنا بين القصد أضر بينه ما لهم فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق فما من دولة تعجزها أن تملأ أرضها شموعًا وأقلامًا وورقًا إنما المسألة فى وعى الحاكم وحرمة هذه الأموال وتجنب التفريط فيها وهكذا أرسى بعدله وحزمه لخدمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

ويومًا أرسل إليه واليه على العراق - عدى بن أرطاة . . يقول : إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجًا حتى خشيت أن يقل الخراج . . فيجبه الخليفة المقسط العادل ، والله لوددت أن الناس كلهم يسلمون حتى تكون أنا وأنت حرَّين نأكل من كسب أيدينا . والسبب فى ذلك أن أهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام يضع عنهم ضريبة الجزية فورًا لكن الدولة الأموية تأبى ذلك حكم الإسلام وتُبقى ضريبة الجزية فوق كواهل الذين أسلموا مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون ضرارًا من الضريبة ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ويعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه خير من ملء الأرض مالاً وذهبًا ويُطلق الخليفة العادل كلماته المضيئة هذه إن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا .

ومن عدله الذى لا نظير له . . أنه كان يضع الضرائب المشروعة مثل زكاة الزروع والثمار كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم صواقع وتتعرض أو تتعرض لبواره ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن عروة بن محمد . . أما بعد . .

فقد كتب إلى تذكرُ أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال . إن خصبوا أو أجدبوا إن حيوا أو ماتوا فسبحان الله رب العالمين . إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق واعلم أنك إن لم ترفع إلىّ من جميع اليمن إلا حفنة من كُتم. أى نبات يخضب به الشعر ويصنع منه مداد للكتابة . .

فقد علم الله أنى سأكون بها مسرورًا ما دام فى ذلك إبقاء على الحق والعدل.

وها هو ذا أحد المقربين إليه الأثرين لديه . عنبسة بن سعد يذهب إليه يومًا يسأله حاجة لنفسه فلنطالع جواب الخليفة له . . يا عنبسة إن يكن مالك الذى عندك حلالاً فهو كافيك . وإن يكن حرامًا فلا تُضيقن إليه حرامًا جديدًا أخبرنى يا عنبسة أمحتاج أنت . . قال: لا . أفعليك دين ؟ قال : لا . . إذًا فكيف تطمع فى أن أعمد إلى مال الله فأعطيكهُ فى غير حاجة وأدع فقراء المسلمين . لو كنت غارمًا لأديته عنك غُرمك أو محتاج لأمرت لك بما يصلح شأنك فليكن لك فى مالك غناء واتق الله وانظر من أين جمعته وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع المحاسبين .

إن هذا الذى قاله لصديقه الحميم عنبسة كان يقوله لكل واحد يسأله ما ليس له حق بعدله وقسطه وحكمته رد المال إلى وظيفته الحقيقة فكتب إلى ولاته قائلاً: لا بد لكل مسلم من مسكن يأوى إليه وخادم يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوه . وأثاث فى بيته فوفروا ذلك كله . ومن كان غارمًا فاقضوا عنه دينه . وليس هذا الأمر قاصرًا على المسلمين فقط بل يشمل أهل الكتاب وإن كان عبر بلفظه المسلم فهو من باب الغالب وتراه كذلك يكتب إلى ولاته قائلاً : استوعب الخراج واحرزه فإن يكن كافيا للناس فحسنا وإلا فاكتب إلىّ حتى أبعث إليك من المال ما توفر به للناس أعطياتهم وعلى طول الدولة وعرضها لكل أعمى بقائد يقوده ويقضى له أموره على حساب الدولة. ولكل مريض أو مريضة بخادم على

حساب الدولة وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين فيقضى عنهم ديونهم ، وافتدى أسرى المسلمين جميعًا وأغدق عليهم بعطاء ، وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم فى جميع أقطار دولته العريضة المترامية الأطراف . وكما فعل جده العظيم عمر بن الخطاب من قبل فعل هو أيضًا فأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته وليس بعد فطامه وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب .

ذلك أن عدل ابن عبد العزيز لم يكف الناس حاجتهم فحسب بل ملأهم شعورًا بالعزة والكرامة .

وهذا موقف آخر من مواقف عدله التى تكاد لا تنتهى فكان الوليد بن عبد الملك قد هدم جزءًا كبيرًا من كنيسة يوحنا ليقم عليه إمتداد المسجد الأموى المشيد وحين ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم. ترى ماذا يصنع أمير المؤمنين إن الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا ، وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضًا سخيا أو أرضًا بديلة لكن ابن عبد العزيز يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا فأصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة . ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره ولكنه أصدر أمرًا جديدًا حدد فيه اليوم والساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق فيحمد الله عليه ثم يقره ويرضاه أرأينا عدلا مثل هذا ولقد صدق إمبراطور الروم : ليو الثالث : وكان خصما عنيدا للدولة الإسلامية لا يكاد يبلغه نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاء مُرًا أذهل حاشيته وأساقفته فسألوه فى ذلك فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق

وأجمع ما قيل فى تأبين أمير المؤمنين .

مات والله ملك عادل ليس لعدله مثيل .

وهذا الخليفة العادل لن تُفلت من عدله ورحمته وحسناته وأبوته شاردة ولا واردة فيقول ابن عبد الحكم الذى يروى لنا هذه الواقعة . حمل إليه البريد ذات يوم رسالة من الجيزة بمصر - أما صاحبة الرسالة فاسمها - فرتونة السوداء - تشكو لأمير المؤمنين أن لها حائطًا متهدمًا لدارها يتسوره اللصوص ويسرقون دجاجها وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة الخلافة بالشام يكتب إلى واليه على مصر - أيوب بن شرحبيل - هذا الخطاب - من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أيوب بن شرحبيل سلام الله عليكم. أما بعد .

فإن فرتونة السوداء كتبت إلى تشكو قصر حائطها وأن دجاجها يُسرق منها وتسأل تحصينه لها فإذا جاءك كتابى هذا فاركب بنفسك وحصنه لها والبريد نفسه الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر حمل كتابًا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء .

من عبد الله عمر بن عبد العزيز - أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء - سلام الله عليك أما بعد . . فقد بلغنى كتابك وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يُقتحم عليك ويُسرق دجاجك . . وقد كتب إلى - أيوب بن شرحبيل - أمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين إن شاء الله - فلما جاء الكتاب إلى أيوب ابن شرحبيل ركب بنفسه حتى أتى الجيزة وظل يسأل عن فرتونة حتى وجدها فإذا هى سوداء مسكينة فأعلى لها حائطها .

بل إن عدله ورحمته وسع كل شىء شملته الإنسان والحيوان - فقد روى أنه يأتيه يومًا رسالتان كبيرتان مملوءتان من رُطب الأردن فيسأل ما هذا فيقال رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين ويعود ويسأل وعلام جىء به فيقال له على

دواب البريد فيهز رأسه ويقول لقد حملتموها فوق طاقتها بيعوا الرطب واشتروا بثمنه علفًا لدواب البريد التى حملته .

نـــور الدين محمود زنكى

يقول العلامة ابن الأثير إن الملك نور الدين زنكى بينما هو ذات يوما جالس إذا رأى رجلا يحدث آخر ، ويومى إلى نور الدين فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه فإذا هو معه رسول من جهة الحاكم ، ويزعم أن له على نور الدين حقا يريد أن يحاكمه عند القاضى ، فلما رجع الحاجب إلى نور الدين ، وأعلمه بذلك ألقى ما فى يده وأقبل مع خصمه إلى القاضى ماشيا وخاطب القاضى قائلا له: لا تعاملنى إلا معاملة الخصوم ، فحين وصل وقف نور الدين مع خصمه بين يدى القاضى حتى انفصلت الخصومة والحكومة ، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق بل ثبت الحق للسلطان على الرجل فلما تبين ذلك قال السلطان : إنما جئت معه لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعى إليه ؛ فإنما نحن معاشر الحكام أعلنا وأدنا لرسول الله ﷺ ولشرعه قائمين بين يديه طوع مراسمه فما أمر به امتثلنا وما نهانا عنه انتهينا وإنى أعلم أنه لاحق للرجل عندى ومع هذا أشهدكم أنى قد ملكته الذى ادعى به ووهبته له وهو أول من ابتنى دارًا للعدل .

عدل القاضى أبو يوسف ـ رحمه الله ـ

فقد حكم أبو يوسف ليهودى فى قضية رفعها على الخليفة هارون الرشيد وقصة ذلك أن جاءه رجل فقال له : إن له بستانا وإنه فى يد أمير المؤمنين ، فدخل إلى أمير المؤمنين فأخبره فقال : البستان لى اشتراه لى المهدى فأحضر القاضى المدعى فقال : البستان ملكى فقال : الخليفة البستان هو لى فقال القاضى: هل لك بينة يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : فأعرض عليك اليمين فإن حلفت فهو لك ،، وإن امتنعت فسأحكم به لهذا الرجل فامتنع الخليفة عن القسم ، فحكم بالبستان للرجل وسلمه إليه .

فهذا قمة العدل حيث إن القاضى ينصف رجلا من الرعية ، وعلى غير دين الإسلام على الخليفة الذى بيده كل مقاليد الأمور .

بل تأتينا أنت :

أراد محمد بن سليمان أمير البصرة فى حكم بنى العباس أن يميز أحد أبنائه بوصية يوصى بها فى ماله ، وهذا الأمير كان ذا ثراء عظيم فبلغ دخله فى اليوم مائة ألف درهم فأرسل إلى الفقيه حماد بن سلمة فقيه البصرة ، وعالمها ، وأستاذ الإمام أبى حنيفة فرفض المجىء إليه ، فذهب إليه الأمير ، فخرجت إليه ابنته ، وقالت : يا أبى إنه محمد بن سليمان . قال : قولى له فليدخل وحده فدخل وجلس بين يديه ثم ابتدأ قائلا مالى إذا نظرت إليك امتلأت منك رعبًا ؟ فقال حماد : إنه روى عن رسول الله ﷺ يقول : « إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شىء وإذا أراد بعلمه أن يكنز الكنوز هاب من كل شىء » . فقال : ما تقول فى رجل له ابنان وهو عن أحدهما راض فأراد أن يجعل له فى حياته ثلثى ماله ؟ قال الفقيه : لا تفعل رحمك الله فإنى سمعت أنس بن ملك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله أن يعذب عبدا من عباده فى حياته وفقه لوصية جائرة » ، فعرض عليه المال فلم يقبل وعرض عليه المنصب فقال: ماذا ينفعنى به ؟ فهذا الفقيه مَنَعَهُ العدل أن يكون سببًا فى ظلم أحد وحرمانه من حقه ، وإن كان الأب أراد أن يستميله بقدر من المال ، أو التلويح له بمنصب كبير، ولكن عدله منعه فرض المال وتنازل عن المنصب فلنا فيه القدوة .

أنا بالله ثم بالقاضى :

أتت امرأة يوما شريك بن عبد الله قاضى الكوفة وهو فى مجلس الحكم فقالت: أنا بالله ثم بالقاضى . قال : من ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى عَمّ أمير المؤمنين كان لى بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبى وقاسمت إخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطًا وجعلت فيه رجلا يحفظ النخل ويقوم عليه فاشترى الأمير موسى من جميع إخوتى وساومنى فلم أبعه ، فلما كانت هذه

الليلة بعث بخمسمائة رجل فاقتلعوا الحائط فأصبحت لا أعرف من نخلى شيئًا واختلط بنخل إخوتى قال القاضى العادل لخادمه : أحضر لى ورقة فأحضر الورقة وختمها وقال : امض إلى بابه حتى يحضر معك فأخذها الحاجب ودخل على الأمير موسى فقال : طلبك القاضى شريك وهذا ختمه . فقال : ادع لى رئيس الشرطة فدعى به فقال : امض إلى شريك وقل : يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك امرأة ادعت دعوة لم تصح أعديتها على ؟ قال رئيس الشرطة : إن رأى الأمير أن يعفينى من ذلك . فقال : امض فخرج ، وقال لخادمه : اذهب واحمل إلى سجن القاضى غطاءً وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه ، ثم مضى إلى شريك فلما وقف بين يديه وأدى إليه الرسالة فقال شريك لغلام المجلس : خذ بيده وضعه فى الحبس . قال صاحب الشرطة : والله لقد علمت أنك تحبسنى فقدمت ما أحتاج إليه فى الحبس ، فبلغ ذلك موسى بن عيسى الخبر فوجه الحاجب إليه، وقال له رسول الأمير أدى رسالة أى شىء عليه ؟ قال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه ؛ فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح أحد المقربين إلى القاضى شريك ، وقال له الأمير : قل لشريك أنه استخف بى ولست كالعامة من الناس فمضى إليه ، وهو جالس فى مسجده فأبلغه الرسالة ، فأمر به إلى السجن ، وقال : ما أنت إلا فتنة وجزاؤك الحبس حتى لا تعود إلى مناصرة ظالم، فلم يجد الأمير بدا من أن يذهب إليه ، وجاءت المرأة ، وخاصمت الأمير فقضى لها ورد ما أخذ منها وأمره أن يبنى حائطا لها كما كان فلما فرغا من القضاء أخذ بيد موسى بن عيسى وضحك وأجلسه فى مجلسه ، وقال : السلام عليك أيها الأمير أتأمر بشىء ؟ فقال : أى شىء آمر به وضحك ، فقال له شريك ذلك الفعل حق الشرع والعدل ، وهذا القول حق الأدب والعرف .

مواقف من عدل عبد الله بن رواحة

أخرج البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ـ كان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم . . أى يحرزها ـ وبمعنى يحصرها ـ ثم ضمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ . شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال : يا أعداء الله تطعمونى السحت ـ أى الحرام ـ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىَّ ولأنتم أبغض إلىَّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى إياكم . وحبى إياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

عدل المقداد بن الأسود رضى الله عنه

روى عن الحارث بن سويد قال ـ كان المقداد بن الأسود ـ رضى الله عنهما فى سرية فحصرهم فعزم الأمير أن لا يجشر أحد دابته فجشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل وهو يقول ما رأيت كما لقيت اليوم قط فمرَّ المقداد فقال ما شأنك ؟

فذكر له قصته فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال : أقده من نفسك فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد . وهو يقول لأموتنه والإسلام عزيز .

قال بلال بن سعد :

لا تكن وليا لله فى العلانية وعدوه فى السر ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات فى العلانية وصديقهم فى السر ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين فتظهر للناس أنك تخشى الله ليهدوك وقلبك فاجر .

وقال أيضًا : أيها الناس إنكم لم تخلقوا للفناء وإنما خلقتم للبقاء ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ومن الأرحام إلى الدنيا ومن الدنيا إلى القبور ومن القبور إلى الموقف ومن الموقف إلى الجنة أو النار.

وقال : عباد الرحمن إنكم تعملون فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال إلى دار مقام ومن دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود فمن لم يعمل على يقينه فلا ينتفعن . عباد الرحمن لو قد غفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلا ولو علمتم بما تعلمون لكان لكم مقتدا وملتجأ . عباد الرحمن أما ما وكلتم به فتيضعونه وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبونه ما هكذا نعت الله عباده الموقنين ذو عقول فى الدنيا وبله فى الآخرة وعمى عما خلقتم له بصراء فى أمر الدنيا فكما ترحمون رحمة الله مما تؤدون من طاعته فكذلك أشفقوا من عذابه مما تنتهكون من معاصيه . عباد الرحمن هل جاءكم مخبر يخبركم أن أشياء من أعمالكم قد تقبل منكم أو أشياء من خطاياكم قد غفرت لكم . أنما حسبتم أن أخلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون .

ويقول : لا ينظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى من عصيت .

كلمة حق عند سلطان جائر:

دخل عبد الله بن على عم السفاح الذى أجلى بنى أمية وأزال الله دولتهم على يديه دمشق فطلب الإمام الأوزاعى فتغيّب ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه قال الأوزاعى : دخلت عليه وهو على سرير ، وفى يده خيزرانة والجنود عن يمينه وشماله معهم السيوف قابضة عليها فسلمت عليه فلم يرد ونكت فى الأرض بتلك الخيزرانة التى بيده ثم قال يا أوزاعى ماذا ترى فيما صنعنا من إزاله أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ أجهاد ورباطًا هو ؟ قال : أيها الأمير سمعت عن عمر بن الخطاب مما يروى عن رسول الله «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» فنكت بالخيزرانة أشد وجعل من حوله يقبضون على سيوفهم ثم قال : يا أوزاعى ماذا تقول فى دماء بنى أمية ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : لا يحل دم امرئ سلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة فغضب أشد . فقال : ما تقول : فى أموالهم قال له : إن كانت فى أيديهم حراما فهى حرام عليك أيضا وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعى فغضب أشد . ثم قال : « ألا نوليك القضاء : فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يسعون على فى ذلك وإنى أحب أن يتم ما انتدؤونى به من الإحسان ـ وكهذه الطريقة قال الأوزعى كلمة حق ولم يخشى فى الله لومة لائم . . . .

أقـــوال وحكـم

١ - يقول التابعى وهب بن منبه قال لقمان لابنه إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة ومن قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله . ومن شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه عز وجل ومن أسف على ما فاته من الدنيا سخط قضاء ربه عز وجل ومن تضعضع لغنى ذهب ثلث دينه.

٢ - ويقول أيضًا . يقول الله تعالى إذا أطاعنى عبدى استحييت له من قبل أن يدعونى وأعطيته من قبل أن يسألنى وإن عبدا أطاعنى لو أن أهل السماوات وأهل الأرض أجلبوا عليه جعلت له المخرج من ذلك وإن عبدًا عصانى قطعت يديه من أبواب السماء وجعلته فى الهواء فلا يمتنع من شىء أراده من خلقى .

٣ - وقال الطبرانى عن ابن عقيل: سمعت وهب يقول إن الله عز وجل ليس يحمد أحد على طاعة ولا ينال أحد من الله خير إلا برحمته وليس يرجو الله خير الناس ولا يخاف شرهم ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم إن مكروا به أباد وإن خادعوه رد عليهم خداعهم وإن كذبوه كذب بهم وإن أدبروا قطع دابرهم وإن أقبلوا قبل منهم ولا يقبل منهم شيئا من حيلة ولا مكر ولا خداع ولا سخط ولا مشادة وإنما يأتى بالخير من الله تعالى رحمته ومن يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجد بابا غير ذلك يدخل منه فإن الله تعالى لا ننال الخير منه إلا بطاعته ولا يعطف الله على الناس شىء إلا تعبدهم له وتضرعهم إليه حتى يرحمهم فإذا رحمهم استخرجت رحمته منه حاجتهم .

٤ - ويقول أيضا قال الله عز وجل : إنى إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت وإن لعنة منى تبلغ السباع من الولد .

مواعظ وحكم الحسن البصرى

روى عن الحسن رحمه الله أنه كان يقول قضاء حاجة أخ مسلم أحب إلىَّ من اعتكاف شهر وسأله رجل عن حسن الخلق ما هو ؟ فقال: البذل والعفو والاحتمال ومروءة الرجل وصدق لسانه واحتماله مؤونة إخوانه وبذله المعروف لأهل زمانه وكفه الأذى عن جيرانه .

ومن أقواله : لو شاء الله عز وجل لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولو شاء لجعلكم فقراء لا غنىَّ فيكم ولكنى أبتلى بعضكم ببعض لينظر كيف تعملون ثم دل عباده على مكارم الأخلاق فقال :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

وقال عدة الكريم فعل وتعجيل وعدة اللئيم تسويف وتطويل وما أنصفك من كلفك إجلاله ومنعك ماله .

وقال: كنا نعد البخيل فينا الذى يعرض أخاه الدراهم إذ كنا نتعامل بالمشاركة والإيثار والله لقد كان أحد من رأيت وصحبت يشق إزاره فيؤثر أخاه بنصفه ويبقى له ما بقى ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يصوم فإذا كان عنده فطره مرَّ على بعض إخوانه فيقول إنى صمت هذا اليوم لله وأردت أن يتقبلهُ الله منى أن يكون لك فيه حظ فهلم شيئا من عشائك فيأتيه الآخر بما تيسر من ماء وتمر فيفطر عنده يبتغى أن يكسبه أجرًا وإن كان غنيًا عن الذى عنده .

ومن أقواله أنه يقول إن لأهل الخير علامة يعرفون بها صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وقلة الفخر والخيلاء وصلة الرحم ورحمة الضعفاء وبذل المعروف وحسن الخلق وسعة العلم وبث العلم وقلة مناقشة النساء . أى مجالستهن .

ومن أقواله: ابن آدم إنك لن تجمع إيمانًا وخيانة كيف تكون مؤمنا ولا يأمنك جارك أو تكون مسلمًا ولا يسلم الناس منك أليس قد روى عن الرسول ﷺ أنه قال لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ابن آدم إنك لا تستحق حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك .

ومن أقواله كذالك أربع من كن فيه عصمه الله عز وجل من الشيطان وعفاه من النار من ملك نفسه عند الداهية والرغبة والحدة والشهوة .

العلم خير تراث والأدب أزينه خدين أى الصديق والتقوى خير زاد والعبادة أربح بضاعة والعقل خير وافد وحسن الخلق خير قرين والحلم خير وزير والقناعة أفضل غنى والتوفيق خير معين وذكر الموت أوعظ واعظ .

ولا تكن ممن يجمع علم العلماء وحكم الحكماء ويجرعه فى الحق مجرى السفهاء ويقول روى عنه رسول الله ﷺ العلم علمان علم فى القلب فذاك العلم النافع . وعلم اللسان فذلك حقية الله على ابن آدم .

ما روى عنه من المواعظ والحكم فى سائر الأشياء :

قيل مر الحسن برجل يضحك فقال . . يا ابن أخى هل جزت الصراط فقال: لا قال : فهل علمت إلى الجنة تصير أم إلى النار فقال لا ؟ قال: ففيم الضحك عافاك الله والامر هول شديد قيل فما رئى الرجل ضاحكًا حتى مات .

ورأى الحسن قومًا يتضاحكون ويتغامزون ويتدافعون بعد انصرافهم يوم الفطر من صلاة الفجر فقال يا قوم إن الله سبحانه جعل شهر رمضان مضمارا لعباده يستبقون فيه بالطاعات إلى رحمته ويجتهدون فى الأعمال ليفوزوا بدخول جنته فسبقه أقوام ففازوا وقصر آخرون وخابوا والعجب كل العجب للضاحك فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون أما والله لو كشف الغطاء لشعل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته عن تجديد ثوب وترجيل شعر فإن كنتم علمتم أن سعيكم قبل وعملكم الصالح قد رفع فما هذا فعل الشاكرين وإن كنتم لم تتيقنوا ذلك فما

هذا فعل الخائفين .

وكان يقول رحم الله امرء نظر ففكر وفكر فاعتبر واعتبر فأبصر وأبصر فصبر أقوام ثم لم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعوا إلى ما فارقوا فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

خرج يوما على أصحابه وهم مجتمعون فقال والله لو أن رجلاً منكم أدرك من القرن الأول ورأى من رأيت من السلف الصالح لأصبح مهموما وأمسى مغمومًا وعلم أن المجِدّ منكم اللاعب والمجتهد كالتارك ولو كنت راضيًا عن نفسى لوعظتكم ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها ولذلك أبغضها وأبغضكم أيها الناس إن لله عبادًا قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأنفسهم عفيفة وحوائجهم حفيفة صبروا الأيام القلائل لما رجوه فى الدهور الأطول أما الليل فقائمون على أقدامهم يتضرعون إلى ربهم ويسعون فى فكاك رقابهم وتجرى من الخشية دموعهم وتخفق من الخوف قلوبهم .

وأما النهار فحلماء علماء أتقياء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تخالهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض ولكنهم خصصوًا بذكر النار وأحوالها لهم والله كانو فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بإبصاركم وهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم تعذبوا على سيئاتكم . ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

يقول فى وصف المؤمن : « المؤمن فى الصلاة خاشع وإلى الركوع مسارع قوله شفاء وصبره تقى وسكوته فكرة ونظره عبرة يخالطه العلماء ليعلم ويسكن بينهم ليسلم ويتكلم ليغنم إن أحسن استبشر وإن أساء استغفر وإن عتب استعتب وإن سفه عليه حلم وإن ظُلم صبر وإن جير عليه عدل لا يتعوذ بغير الله ولا يستدعين إلا بالله وقور فى الملأ إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين، وإن جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

وقال هكذا كان أصحاب النبى ﷺ . الأول فالأول حتى لحقوا بالله عز وجل وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح وإنما غير بكم لما غيرتم ، ثم قرأ قول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

فلا نجد دينا خص العدل بعناية كتلك التى خصه بها دين الإسلام وحسبنا القرآن الكريم شاهدا على ذلك فقد دعا إلى صراحة مراعاة العدل فى كل موضع تدعو الحاجة فيه إلى العدل وما أجمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠] والسنة المحمدية مليئة بالحث على العدل ومن ذلك الحكمة الشريفة القائلة . الظلم ظلمات يوم القيامة .

نعم وتلك كلمة حق لا شك فيها فما أغتيل الظالمون ولا سقط الحاكمون وهدمت العروش ولا محيت الدول ولا ضربت القرى ولا عم الفقر ولا الفنار إلا حيث يوجد الظلم وينعدم العدل ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]

لأن الظلم يوغر صدر الابن على أبيه والبنت على أمها والدعية على دعيها فتدب عقارب الفساد وتسعى عوامل الخراب فى تدمير كل ما بنته يدى الأمن والعدل لهذا كان لزاما علينا أن تذكر بعض النماذج التى أضاء الحياة بنورها وما زلنا نسير فى هذا النور إلى اليوم بل إلى أن تقوم الساعة .

أهـــم المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ سيرة ابن هشام الجزء الثانى .

٣ ـ تفسير السيرة للإمام السهيلى المجلد الثانى الجزء الأول .

٤ ـ البداية والنهاية للإمام ابن كثير المجلد الثالث الجزء السادس ، والمجلد الخامس الجزء العاشر .

٥ ـ الخلفاء الراشدون خالد محمد خالد .

٧ـ التهذيب الجزء الثانى .

٩ـ ميزان الاعتدال الجزء الأول .

١٠ـ حياة الصحابة ليوسف الكندهلوى المجلد الثانى الجزء الثانى .

١١ ـ تاريخ الطبرى المجلد الرابع .

١٢ ـ الروضة الندية .

١٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر الجزء الخامس .

١٤ ـ أخبار عمر للأستاذين على الطنطاوى وناجى الطنطاوى .

١٥ ـ الرياض الندرة لأبى جعفر الطبرى .

١٦ ـ الكنز المجلد الثالث .

١٧ ـ الأخبار الطول لأبى حنيفة الدينورى .

١٨ ـ شرح الزرقانى على المواهب اللدنية للقسطلانى ، المجلد الأول.

١٩ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، المجلد الثالث.

٢٠ ـ وداعا عثمان : خالد محمد خالد.

٢١ ـ العبقريات للعقاد (عمر ـ على ـ عثمان ـ أبو بكر) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة